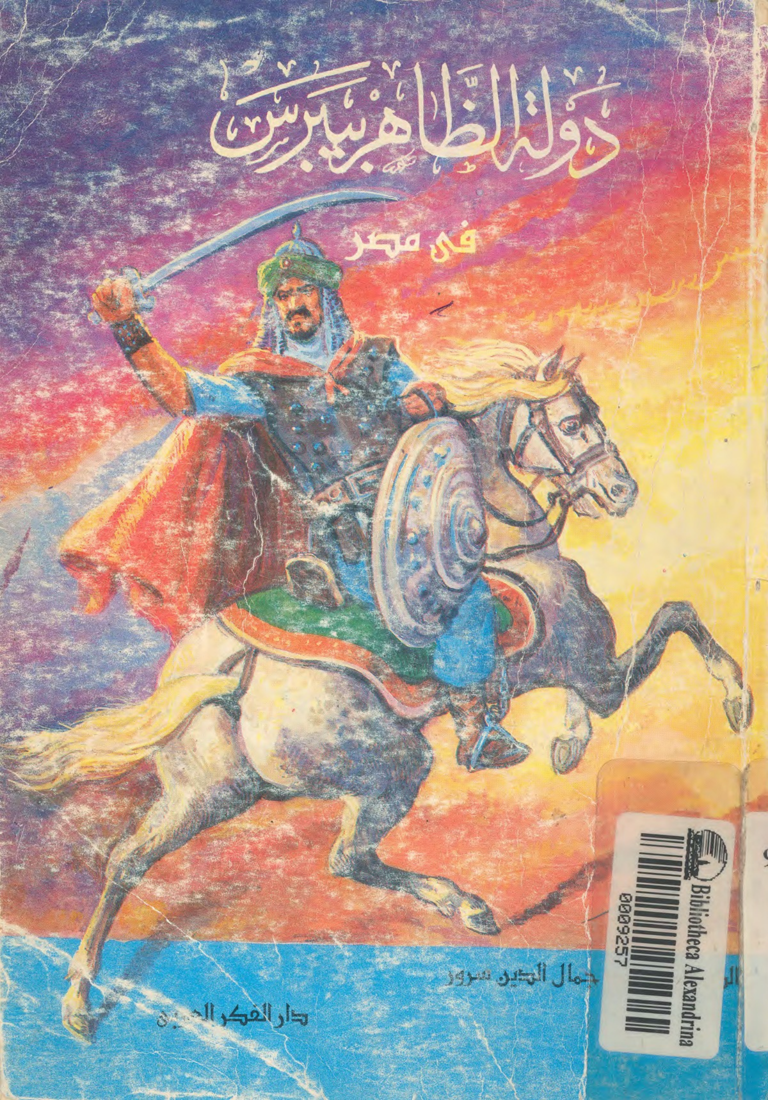

دولة الظاهر بيبرس
في مصر
جمال الدين سرور
دار الفكر العربي
Bibliotheca Alexandrina
0009257

دولة الظاهر بيبرس

في مصر

الدكتور محمد جمال الدين سرور
أستاذ التاريخ الإسلامي
كلية الآداب — جامعة القاهرة

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
الإدارة : ١١ شارع جواد حسني
ص .ب ١٣٠ القاهرة – ت : ٣٩٢٥٥٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين .

وبعد ، فهذا كتاب يتناول تاريخنا القومي وحضارتنا في مستهل عصر المماليك الذي تجلى فيه عظمة مصر بأجلى مظاهرها ، وازدياد نفوذها وخاصة بعد أن وقفت قواتها في وجه الصليبيين وصدت غارات المغول .

ولا ريب أن مصر استطاعت أن تظفر بمركز ممتاز بين الدول المجاورة لها منذ أسهم الظاهر بيبرس في سياستها وأقام فيها دولة امتد نفوذها من بلاد الشام شمالا إلى بلاد النوبة جنوباً . وأحيا الخلافة الإسلامية في القاهرة بعد أن قضى عليها المغول في بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، وأصبحت مصر مقر الخليفة العباسي وقلب الإسلام النابض .

وكانت مصر حين تقلد بيبرس زمام الحكم فيها تواجه عدة أخطار : من مناوشات الصليبيين لها ، واستبداد الأمراء من المماليك بالأمر فيها ، وتطلع الأيوبيين بالشام إليها ، وتهديد المغول لها . والبلاد الشامية كأنها ممالك متعددة فبعضها في أيدي الأيوبيين ؛ والصليبيون يحتلون سواحلها ؛ والمغول قد أغاروا عليها واحتلوا جزءاً كبيراً منها .

ولم يكن الظاهر بيبرس غافلا عن تلك الأخطار ؛ فوجه اهتمامه إلى التغلب عليها بعد أن وطد سلطته في مصر ؛ ففيما يتعلق بالصليبيين كانت الأسباب قد تهيأت للقضاء على إماراتهم بالشرق بعد جلاء المغول عن دمشق على أثر هزيمتهم في موقعة عين جالوت التي مهدت الطريق لانضواء الشام

ومصر تحت سلطان واحد سنة ١٢٦٠ م . وكان بيبرس فى غزواته ضد الصليبيين ببلاد الشام ينتصر عليهم ويستولى على معاقلهم وينتقص مدنهم من أطرافها رغم ما كان يتتابع عليهم من نجدات الدول الأوربية ؛ واستطاع أخيراً أن يستولى على إمارة أنطاكية ، ومهد بذلك السبيل للقضاء على بقاياهم فى عهد الأشرف خليل بن قلاوون سنة ١٢٩٢ م .

وكان مغول فارس يطمعون فى مد سلطانهم إلى الشام ومصر ؛ ولم ينسوا الهزيمة التى حلت بهم فى واقعة عين جالوت ، فظلوا يُوالون الزحف والإغارة على البلاد الشامية ؛ لذلك كانت الحروب بينهم وبين بيبرس سجالا فقضى على قوتهم بالشام ، ولم ينقطع عن مطاردتهم من الولايات التى كانوا يغيرون عليها ؛ وحال بينهم وبين ما يشتهون . لكنه فى نفس الوقت رحب بمحالفة بركة خان رئيس مغول القبيلة الذهبية — الذى اعتنق الإسلام هو وكثير من أتباعه ببلاد القفجاق — ، واتفق معه على مقاومة مغول فارس الذين دأبوا على تهديد بلادهما .

وكان لاتساع نفوذ دولة الظاهر بيبرس بين الدول المجاورة لها أثر كبير فى حمل الدول الأوربية على التقرب إليها ، فاستحكمت عرى المودة بين الدولتين المصرية والبيزنطية ، كما توثقت العلاقات بين مصر وملكى صقلية وأرجونة (Aragon) ، وأمير إشبيلية .

أما عن موقف مصر من الدول الإسلامية ، فإن بلاد الحجاز واليمن أصبحت بمقتضى التقليد الذى منحه الخليفة المستنصر بالله للسلطان الملك الظاهر بيبرس تحت سيادته ، واستطاع بيبرس أن يستعيد مكانة مصر فى الأراضى المقدسة بالحجاز ، بفضل إحيائه الخلافة العباسية فى القاهرة واهتمامه بشئون مكة والمدينة .

على أن أهم مايتميز به عصر الظاهر بيبرس فى مصر تطور الحضارة فيه ،

وظهورها بمظهر يعتبر نواة لنهضة دولة المماليك ، فإلى جانب ما نلمسه من تقدم فى نظم الحكم والإدارة ، يتجلى لنا انتعاش الحياة الإقتصادية بفضل ما بذله بيبرس من جهود موفقة فى سبيل تنمية موارد الثروة ، كما نلحظ عناية كبيرة بإعداد القوات البرية والبحرية ، وإهتماماً بإقامة المنشآت ؛ وفضلا عن ذلك ، فإن هـــذا العصر أظهر لنا شخصيات بارزة فى نواحى العلم والأدب ، كان لها أثر كبير فى ازدهار الحياة الثقافية فى مصر .

* * *

وقد بدأتُ الكتاب ببحث الحالة السياسية فى مصر قبيل سلطنة بيبرس ، فبينت العوامل التى أدت إلى انتقال الحكم من أيدى الأيوبيين إلى المماليك ، والظروف التى ساعدت على ازدياد نفوذ المماليك البحرية وعلى رأسهم بيبرس.

كذلك تحدثت عن الموقف السياسى الداخلى فى عهد الظاهر بيبرس ، فوضحت الصعوبات التى واجهته على أثر تقلده سلطنة مصر والأسباب التى دعته إلى إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة .

ـ ومن الموضوعات التى أوليتها اهتمامى سياسة مصر الخارجية فى عهد الظاهر بيبرس ، فتناولت بالبحث موقف مصر إزاء الصليبيين ، وما بذله بيبرس من جهود فى صد غاراتهم ، ومناهضة المغول حتى ردهم على أعقابهم ، فانقلبوا خاسرين ،كما تحدثت عن العلاقات مع ملوك أوربا وبخاصة إمبراطور الدولة البيزنطية ومنفرد ملك صقلية وتسكانيا ، وبيّنت كيف اتسع نفوذ مصر بين الأقطار المجاورة لها التى ترتبط بها بأواصر قوية من الدين واللغة كبلاد النوبة والحجاز .

وكان للنظم والحضارة فى مصر فى صدر عصر المماليك حظ كبير من عنايتى فبحثت تطور نظم الحكم والإدارة فى هذا العصر ، وبيّنت الجهود

التى بذلت فى سبيل إعداد قوة برية وأخرى بحرية لصد ما تتعرض له الدولة المصرية من غارات الأعداء ، كما وضّحت مدى ما وصلت إليه مصر من تقدم فى ميدان الزراعة والصناعة والتجارة ، وما أحرزته من رقى فى الحياة العلمية والأدبية .

والله أسأل أن يوفقنا جميعاً إلى ما فيه خير بلادنا ونفع أمتنا .

محمد جمال الدين سرور

فهرس موضوعات الكتاب

الباب الثالث

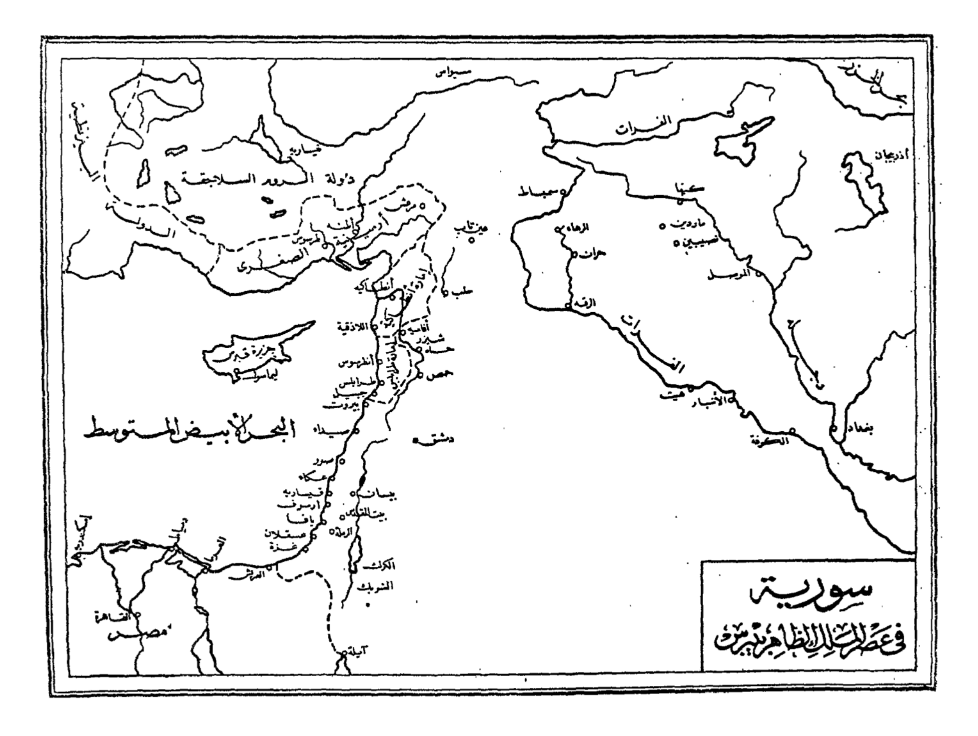
سياسة مصر الخارجية فى عهد بيبرس

الباب الرابع

النظم والحضارة فى مصر فى عصر الظاهر بيبرس

صفحة

* * *



سورية
في عصر الملك الظاهر بيبرس
البحر الأبيض المتوسط
دولة الروم السلاجقة
أرمينية الصغرى
جزيرة قبرص
ليماسول
سيواس
قيسارية
مرعش
أدنه
طرسوس
أنطاكية
اللاذقية
أنطرسوس
طرابلس
جبيل
بيروت
صيداء
صور
عكاء
قيسارية
أرسوف
يافا
عسقلان
غزة
العريش
الرملة
بيت المقدس
بيسان
الكرك
الشوبك
آيلة
دمشق
حمص
حماة
شيزر
أفامية
حلب
عين تاب
سمياط
الرهاء
حران
الرقة
الفرات
ماردين
نصيبين
آمد
الموصل
أذربيجان
هيت
الأنبار
الكوفة
بغداد
دمياط
الإسكندرية
القاهرة
مصر

بحث فى مصادر الكتاب

تمتاز المراجع المخطوطة التى اعتمدت عليها فى كتابى هذا بأن مؤلفيها عاشوا فى عصر المماليك وأدرك بعضهم عهد بيبرس نفسه كما أن بعضهم تولى بعض الأعمال الإدارية فى مصر فى عهده وفى عهد من خلفه من سلاطين المماليك. ولذلك فإنها تعد من هذه الناحية ذات أهمية تاريخية فى دراسة عصر الظاهر بيبرس.

ومن المؤرخين الذين عاشوا فى أيام الملك الظاهر: جمال الدين بن واصل المتوفى سنه ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م) مؤلف كتاب «مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب» وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ويعتمد عليه فى دراسة تاريخ الدولة الأيوبية وصدر دولة المماليك بمصر. وقد اعتمدت عليه فى استقصاء تفاصيل حياة بيبرس الأولى وما قام فى وجهه من الصعاب على أثر توليته سلطنة مصر. فهو من هذه الناحية يوضح السبب الذى من أجله غدر بيبرس بالملك المغيث صاحب الكرك الذى خرج عن طاعة بيبرس على أثر توليته سلطنة مصر. ويمدنا هذا المرجع أيضاً بمعلومات لها قيمتها التاريخية فيما يختص بعلاقه بيبرس بجزيرة صقلية. ويؤخذ مما جاء بهذا المرجع بصدد هذه المسألة أن مؤلفه ذهب إلى جزيرة صقلية سنة ٦٦١ هـ رسولاً من قبل الملك الظاهر يحمل هدية إلى ملكها وأنه انقطع عن الكتابة منذ هذه السنة وواصل تلميذه الكاتب كتابته إلى سنة ٦٨٠ هـ ملخصاً عن كتاب آخر إسمه التاريخ لا يعرف إسم مؤلفه.

أما بيبرس الدوادار المتوفى سنة ٧٢٥ هـ صاحب كتاب «زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة»، وهو مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة فقد تولى بعض المناصب الإدارية فى عهد السلطان قلاوون وابنه الناصر محمد. قلده قلاوون ولاية

الكرك ثم عزله ابنه الأشرف خليل . وعندما تولى السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطنة مصر سنة ٦٩٣ هـ عينه رئيساً لديوان الإنشاء ولقب منذ ذلك الوقت بالدوادار[١] وأخذ يترقى فى مناصب الدولة حتى عين نائباً للسلطان سنة ٧١١ هـ . ومن ذلك نرى أن هذا المؤلف كان يكتب عما شاهده فى مصر فى ذلك العصر . فكتابه يعتبر من المراجع الهامة فى دراسة التاريخ السياسى فى عهد الظاهر بيبرس وعهد من خلفه من السلاطين إلى أوائل عهد الناصر محمد ابن قلاوون . وقد اعتمدت على هذا المرجع فى دراسة موقف بيبرس إزاء الصليبيين وعلاقته بمغول فارس وكيف استطاع الملك الظاهر أن يقضى على نفوذ المغول ويوقع بهم الهزيمة بعد أن انضم إليهم سلاجقة آسيا الصغرى سنة ٦٧٥ هـ .

يأتى بعد ذلك الشيخ قطب الدين اليونينى المتوفى سنة ٧٢٦هـ صاحب كتاب « الذيل على مرآة الزمان » وهذا المرجع مخطوط بدار الكتب المصرية وقد ضاع جل أجزائه . ولم يبق منه إلا الجزءان الخامس عشر والسابع عشر . وهذا الجزء الأخير هو الذى اعتمدت عليه فى كتابى . وقد عثر عليه رجال دار الآثار العربية مدفوناً بجامع قايتباى وذلك سنة ١٨٨٢ م . وربما كان هذا هو السبب فى ضياع بعض أوراقه وتمزيق البعض الآخر . وعلى الرغم من الصعوبة التى لاقيتها فى قراءة هذا الكتاب فإننى استطعت أن أستفيد منه بعض الفائدة وخاصة فيما يتعلق بنشأة بيبرس . فقد أمدنا هذا الكتاب برواية فى هذا الصدد أشرت إليها فى كتابى وهى تخالف ما ذكره كل من ابن واصل والمقريزى عن نشأة بيبرس كما أفاض القول فى وفاة بيبرس وأسبابها وما قام به من الأعمال الجليلة التى خلدت ذكره .

ومن المراجع الهامة التى اعتمدت عليها أيضاً كتاب « نهاية الأرب فى فنون

---

(١) الدوادار : هو الكاتب . وهذا اللفظ مأخوذ من الدواة فكأن معناه صاحب الدواة .

الأدب، لشهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب النويرى المتوفى سنة ٧٣٢هـ (١٣٣٢م) فالجزء الثامن والعشرون من هذا المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية والذى لم يتم طبعه بعد يمدنا بمعلومات هامة عن سياسة بيبرس الخارجية وخاصة فيما يتعلق بحروبه مع الصليبيين والمغول وموقفه إزاء طائفة الإسماعيلية ببلاد الشام . وقد اعتمدت على هذا المخطوط فى بحث موضوع إحياء الخلافة العباسية بمصر وعلاقة بيبرس بالصليبيين والمغول وما أدخله بيبرس من التعديلات على نظام القضاء بمصر .

ومن بين الكتب الخطية التى اعتمدت عليها أيضا كتاب « رفع الإصر عن قضاة مصر » لابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٣ هـ (١٤٤٩ م) وهو مخطوط بدار الكتب المصرية. وقد أعانى على معالجة أحد مواضيع كتابى وهو نظام القضاء فى عصر بيبرس .

وهناك مرجع آخر اعتمدت عليه فى بحث سياسة بيبرس الخارجيه وهو عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان لبدر الدين محمود العينى المتوفى سنة ٨٥٥هـ . فالجزء العشرون من هذا المخطوط المحفوظ بدار الكتب المصرية يمدنا بكثير من المعلومات عن علاقة بيبرس بالصليبيين والمغول وأسباب غزو بيبرس لجزيرة قبرس . ومما هو جدير بالملاحظة أن مؤلف هذا الكتاب كثيراً ما ينقل عن بيبرس الدوادار صاحب كتاب « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة »

كذلك اعتمدت على الجزء الثالث من كتاب « النجوم الزاهرة » لأبى المحاسن ابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤هـ (١٤٥٤ م) وهو مخطوط بدار الكتب المصرية . وقد أمدنى بكثير من المعلومات عن نشأة بيبرس الأولى والأدوار التى مر بها قبل دخوله فى حوزة الملك الصالح . وهو يروى لنا رواية عن نشأة بيبرس تشبه تمام الشبه ما ذكره اليونينى عن نشأته . كذلك يمدنا هذا الكتاب بمعلومات مستفيضة عن كيفية اعتلاء بيبرس سلطنة

مصر ومبايعته للخليفة العباسى ومحاربته للصليبيين والمغول وعن منشآته وما أدخله بيبرس من التعديل على نظام القضاء المصرى وما إلى ذلك مما قام به من الأعمال الداخلية والخارجية . وكثيراً ما ينقل مؤلف هذا الكتاب عبارات برمتها عن كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» لتقى الدين المقريزى .

وهناك أيضاً كتاب آخر له أهمية خاصة فى دراسة الحياة الأدبية فى عصر الظاهر بيبرس وهو كتاب «عيون التواريخ» لابن شاكر الكتبى المتوفى سنة ٧٦٤هـ (١٣٦٢م) المخطوط بدار الكتب المصرية . فالجزء الحادى والعشرون من هذا المرجع يمدنا بكثير من المعلومات عن هذه الحياة ويذكر لنا كثيراً من الشعراء الذين عاشوا فى ذلك العصر وما قرضوه من الشعر . وعلى الرغم من أن هذا المرجع يحوى الكثير من الأشعار التى نظمت فى عصر بيبرس إلا أنه يصعب على القارىء قراءتها لضياع كثير من كلماتها ، وفضلا عن ذلك فان هذا الكتاب يمدنا بمعلومات وافية عن الحروب التى وقعت بين بيبرس والصليبيين ومغول فارس وعن ازدياد نفوذ بيبرس فى بلاد النوبة.

ومن المصادر التى تناولت الكلام عن صفات بيبرس وإصلاحاته وحروبه مع الصليبيين والمغول كتاب «المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية» لمؤلفه شافعى بن على بن عباس . وهو مختصر قصيدة نظمها أبو الفضل عبدالله بن عبد الظاهر فى مدح الظاهر بيبرس . وكان ابن عبد الظاهر قد طلب منه أن يختصرها وينثرها . وفى ذلك يقول ابن عباس[1] «وكان كاتب سره البليغ محيي الدين أبو الفضل عبدالله بن شيخ الإسلام رشيد الدين عبد الظاهر قد افتتح أيامه بنظم سيره رتل منها سور محاسنه صورة صورة وأرخ وقايعه (كذا فى الأصل) التى هى فى صحايف (كذا فى الأصل) حسناته مسطورة فأطال وأطاب وخطب بأمتع خطاب وأتى على مجموع أيامه يوماً يوماً ... لكن اقتضى

---

(١) المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ورقة ٤ أ .

الحال أن يثبت منها الغث والسمين وأن يكرر ما يشافه به سمع سلطانه من اطراء وإن كان فيه صادق لا يمين . وكان رحمه الله قد تحدث معي فى اختصارها فلم يتفق فى حياته ولم يقع تأدبا معه فى إثبات لقبه ونفى إثباته . وقد اختصرتها رغبة فى الإيجاز الذى هو عين البلاغة وعذوبة مياه الفصاحة المساغة وذكرت منها الأهم المقدم لتلذ مطالعتها وتروق مراجعتها وبالله التوفيق » .

وهناك مراجع أخرى مطبوعة اعتمدت عليها فى استقصاء سياسة الملك الظاهر الخارجية . ومن أهمها : « كتاب النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد» لمفضل ابن أبى الفضائل الذى لا تعرف سنة وفاته وكل ما نعرفه عنه أنه انتهى من كتابه سنة ٧٣٥ ﻫ . وتنحصر أهميه هذا الكتاب فى أن مؤلفه عاش فى مصر فى عصر الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ — ٧٤١ ﻫ) واعتمد على كثير من المراجع الهامة المعاصرة التى لا تزال مخطوطة إلى الآن . نخص بالذكر منها كتاب «السيرة الظاهرية» لمحي الدين بن عبد الظاهر و « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » لبيبرس الدوادار و « نهاية الأرب فى فنون الأدب » للنويرى. وعلى الرغم من أن مفضل بن أبى الفضائل كان مسيحى المذهب فانه اتبع فى تأليفه الخطة التى سار عليها المؤرخون من المسلمين فبدأ كتابه بالبسملة وأرخ الحوادث بالسنين الهجرية . وقد أمدنى هـــذا الكتاب بحقائق تاريخية عن اتساع نفوذ بيبرس ببلاد النوبة وعن المراسلات التى تبودلت بينه وبين نجاشى الحبشة ؛ وبه فوق ذلك كثير من المعلومات الهـامة عن سياسه بيبرس إزاء الصليبيين والمغول .

كذلك اعتمدت على كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » لتقى الدين المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ ﻫ (١٤٤١ م) عند بحث حالة مصر قبيل اعتلاء بيبرس عرش السلطنة بها ، وسياسته الخارجيـة مع الصليبيين والمغول ، وعلاقته بالملوك الشرقيين والغربيين المعاصرين له ، وماقام به من الإصلاحات.

والمقريزى فى كل هـذه الموضوعات يمدنا بكثير من المعلومات القيمة . ومما يلاحظ عليه أنه ينقل كثيراً عن النويرى فيما يتعلق بكلامه عن الأيوبيين والمماليك .

وهناك كتاب آخر اعتمدت عليه وهو كتاب « المختصر فى أخبار البشر » لأبى الفدا المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١م) . وقد أمدنى بمعلومات هامة عن الأمراء الذين خرجوا عن طاعة بيبرس على أثر اعتلائه عرش مصر كما أعاننى على بحث مسألة إحياء الخلافة العباسية بمصر . هذا وغير خاف ما لغير ما ذكرنا من الكتب من جليل الفائدة لهذا البحث مثل كتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر » لابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٥ م) . وتاريخ الخلفاء للسيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ (١٥٠٥م) و « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » لابن إياس المتوفى سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٣ م) .

ومن أهم المصادر وأمتعها فى بحث النظم الإدارية والمالية فى عصر بيبرس كتاب « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » لأبى العباس أحمد القلقشندى ، وكذلك كتاب « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » للمقريزى ، و « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » للسيوطى . فيمدنا السفر الأول بكثير من المعلومات عن ديوان الإنشاء . وقد أفرد القلقشندى الجزءين الأول والثانى من كتابه فى التعريف بهذا الديوان وفى بحث نشأته فى الإسلام إلى زمنه ، كما يمدنا بمعلومات هامة عن الوظائف والموظفين فى ذلك العصر وعن الطبقات التى كان يتكون منها الجيش وعن نظام البريد والقضاء وما أحاط سلاطين المماليك من أبهة وجلال . أما كتاب الخطط للمقريزى فقد اعتمدت عليه فى وصف منشآت بيبرس والأسواق التجارية التى كانت فى عصره كما ساعدنى على بحث النظام الإدارى فى عصره والوظائف الهامة التى أنشأها . كذلك يمدنا السيوطى ببعض المعلومات عن الموظفين فى ذلك العصر ومهمة كل منهم وعن القضاة الذين تولوا قضاء مصر فى عصر بيبرس ومن خلفه من سلاطين المماليك .

وهناك كتاب تتهافت على قراءته العامة وبعض الخاصة ويعرف بالسيرة الظاهرية ويقع فى ثلاثين جزءاً . وكنت أظن أنه يحوى شيئاً ذا غناء فى سيرة هذا البطل العظيم ولكنى تصفحته فإذا هو يحوى طائفة من الخرافات والأخبار المشوهة التى لا يصح أن يعتمد عليها الباحث الحديث ، لذلك أهملتها واكتفيت بالمراجع الموثوق بها .

ومن المصادر الأفرنجية التى اعتمدت عليها كتاب :
Sir William Muir, "The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt"

وقد أمدنى بعض المعلومات عن سياسة بيبرس إزاء الصليبيين والمغول ، وعن رغبة بيبرس فى حصر وراثة العرش فى أسرته وما ترتب على ذلك من الحوادث .

وهناك كتب أخرى اعتمدت عليها فى بحث موقف بيبرس إزاء الصليبيين وهى : كتاب **Stevenson**, "The crusaders in the East" وكتاب: **Barker**, «The crusades» وكتاب **King**, « The Knights Hospitallers in the Holy Land» . وهذه الكتب لم تفصل القول فيما قام به بيبرس من الأعمال الجليلة ببلاد الشام للقضاء على نفوذ الصليبيين .

كذلك اعتمدت على الترجمة الإنجليزية لمذكرات جوانفيل عن حملة لويس التاسع على مصر : «Memoirs of the crusades» by Villehardouin and Joinville translated by Sir Frank Marzials. وعما كتبه **Davies** فى كتابه : «Invasion of Egypt in A. D. 1249 by Louis IX of France» و **Stanley Lane-Poole** فى كتابه : «A History of Egypt in the Middle Ages». عن هذه الحملة أيضاً . وعلى الرغم من أن جوانفيل قدم إلى مصر مع لويس التاسع وشاهد المعارك التى وقعت بين المصريين والصليبيين فإنه لم يمدنا بمعلومات ذات غناء عن نصيب بيبرس فى صد هذه الحملة وكذلك ديفز (Davies) الذى اعتمد على ما كتبه جوانفيل فى مذكراته لا يمدنا

بمعلومات هامة فى هذا الموضوع . أما (Stanley Lane-Poole) فقد وضح لنا فضل بيبرس وفرقة المماليك فى صد حملة لويس التاسع عن مصر ، كما تكلم عن علاقة بيبرس بملوك أوربا وما عقده معهم من المحالفات والمعاهدات التجارية .

ومن الكتب التى اعتمدت عليها فى دراسة علاقة بيبرس بالمغول كتاب « Browne, "Literary History of Persia » فهـذا المرجع يمدنا بكثير من المعلومات عن سقوط بغداد على يد هولاكو وما ترتب على ذلك من القضاء على الخلافة العباسية . وعن الدور الذى قام به بيبرس فى صد جند هولاكو المغولية فى موقعة عين جالوت (٦٥٨ هـ — ١٢٦٠ م) قبل اعتلائه سلطنة مصر ، كما يوضح لنا أيضاً ما كان بين بيبرس ومغول فارس من العداء وما كان من تغلبه عليهم فى موقعة قيسارية سنة ١٢٧٧ م .

وهناك كتاب آخر اعتمدت عليه فى بحث علاقة بيبرس بالمغول الذين يقطنون ببلاد القفجاق وهو كتاب : Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam وقد أمدنا هذا الكتاب بمعلومات هامة عن كيفية انتشار الإسلام بين أهالى القبيلة الذهبية ببلاد القفجاق وما ترتب على ذلك من قدوم كثير من المغول إلى مصر واعتناقهم الإسلام بها .

ومن الكتب الممتعة التى اعتمدت عليها فى بحث حضارة مصر فى عصر الظاهر بيبرس كتاب Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age وقد أعاننى هذا الكتاب على بحث تجارة مصر الخارجية فى عصر الظاهر بيبرس والمعاهدات التجارية التى عقدها الملك الظاهر مع ملوك أوربا وبعض الأمراء الشرقيين .

الباب الأول

الحالة السياسية في مصر قبيل سلطنة بيبرس

١ـ ظهور المماليك في مصر

٢- انتقال السلطة إلى المماليك

٣- علو شان بيبرس بين المماليك البحرية

١ — ظهور المماليك فى مصر

يرجع استخدام المماليك فى مصر إلى أيام الدولة الطولونية (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ)، [٨٦٨ — ٩٠٥ م] . فقد اشترى أحمد بن طولون مؤسس هذه الدولة المماليك من الديالمة ليقوى بهم جيشه . وقد ذكر ابن إياس [1] أن عدد هؤلاء المماليك وصل إلى أربعة وعشرين ألف مملوك . ثم جاءت الدولة الأخشيدية (٣٢٣ — ٣٥٨ هـ) ، [٩٣٥ — ٩٦٩ م] وعلى رأسها محمد بن طغج الأخشيد . وكان معظم الجيش فى عهده وعهد من جاء بعده من أولاده من الأتراك والديلم . ويروى لنا أبو المحاسن [2] ، أنه كان متجملا فى موكبه وملبسه . فكان موكبه يضاهى موكب الخلافة وبلغت عدة مماليكه ثمانية آلاف مملوك ، ولما جاء الفاطميون إلى مصر (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ) ، [٩٦٩ — ١١٧١ م] وأسسوا بها دولتهم ساروا على طريقة العباسيين فى الاعتماد على غير أبناء جنسهم وأصبح جيشهم يتألف من عدة عناصر أهمها :

١ — المغاربة الذين قامت على أكتافهم هذه الدولة فى بلاد المغرب .

٢ — السودان الذين استكثر منهم الخلفاء منذ أيام المستنصر .

٣ — الأتراك الذين اشتراهم الخلفاء المتأخرون ليكونوا عماد جيشهم وعلى الأخص بعد خروج بلاد المغرب عن سلطانهم فى عهد الخليفة المستنصر

---

(١) تاريخ مصر : ج ١ ص ٣٧

(٢) النجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب) ج ٣ ص ٢٥٦

(٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) . وعلى يد هؤلاء كان انحلال الدولة الفاطمية وزوالها سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) وذلك بسبب قيام العداء بينهم وبين السودان من جهة والتنافس بين رجالهم على الوزارة من جهة أخرى واستعانة بعضهم بالصليبيين مما أوجب تدخل نور الدين محمود صاحب دمشق فى أمر مصر وإرساله الجيوش مع أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب . فقضوا على البقية الباقية من استقلال الخلفاء الفاطميين .

وقد نجح صلاح الدين فى توطيد سلطته فى مصر وانضوى تحت لوائه كل رجالات الدولة وسقطت إلى الحضيض سلطة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، وعلى أثر وفاة هذا الخليفة تم استقلال صلاح الدين [1] مؤسس الدولة الأيوبية فى مصر (٥٦٧ — ٦٤٨ هـ) ، [١١٧١ — ١٢٥٠م] . وقد عمل سلاطينها على جلب الأتراك إليها وبذلوا الأموال الضخمة فى شرائهم بغية الاعتزاز بقوتهم .

وكان أكثر الأيوبيين استجلاباً لهذه الطائفة الملك الصالح نجم الدين أيوب . فقد روى لنا أبو المحاسن [2] وابن إياس [3] أن الصالح أكثر من شراء المماليك بعد أن آل إليه حكم مصر حتى كان عامة عسكره منهم . ولما

---

(١) كان صلاح الدين قد تولى الوزارة بعد وفاة شيركوه وبدأ عمله بالانتصار على الفرنجة فى دمياط فاعتبره المصريون حامياً لهم ثم عمل تدريجيا على تقوية مركزه فى مصر . فأرسل إليه نور الدين يرغبه فى إحلال إسم الخليفة العباسى فى الخطبة محل الخليفة الفاطمى . غير أن صلاح الدين تردد فى تنفيذ هذه الرغبة حتى لا يثير أهالى مصر . وكان الخليفة فى ذلك الوقت مريضا . فعقد صلاح الدين مجلساً من الأمراء استشارهم فى ذكر اسم الخليفة العباسى فى الخطبة فوافقه بعضهم وتردد البعض الآخر وكان فى هذا المجلس رجل فارسى اعتزم أن يتولى بنفسه هذا الأمر فصعد المنبر ودعا للمستضىء العباسى . ولما لم يحتج أحد على ذلك أمر صلاح الدين بأن يخطب الخطباء باسم الخليفة العباسى . وبعد أيام قلائل توفى الخليفة العاضد فاستولى صلاح الدين على قصره وسقطت بذلك الدولة الفاطمية . الفاطميون فى مصر : الدكتور حسن إبراهيم ص٣٠٨ و٣١١ — ٣١٢

(٢) النجوم الزاهرة : ج ٣ القسم الأول ورقة ١٧٥

(٣) بدائع الزهور : ج ١ ص ٨٠٩

خذله أنصاره وانفض عنه أعوانه من الأكراد وجد فيهم عدته فاعتز بهم وأكثر من شرائهم ، فتكون عنده منهم جمع غفير زاحموا أهل البلاد وسرعان ما انتشر بينهم الفساد حتى ضج الأهلون وقال فى ذلك بعض الشعراء :

الصالح المرتضى أيوبُ أكثر من … ترك بدولته يا شر مجلوب
قد أخذ الله أيوباً بفعلته … فالناس قد أصبحوا فى ضر أيوب

يشير الشاعر بذلك إلى قوله تعالى : (وَأيوبَ إذ نادَى ربَّهَ أنى مسنى الضر وأنتَ أرحمُ الرَّاحمين) . (سورة الأنبياء)

نبغ من بين المماليك الذين استكثر منهم الملك الصالح عدة رجال كان لهم أثر كبير فى تغيير مجرى السياسة المصرية نخص بالذكر منهم بيبرس ذلك المملوك الذى أصبح فيما بعد سلطاناً على مصر وصار بعد وفاته موضع حديث الناس وسمرهم يتغنى المصريون بأخباره ويترنمون بما قدم لهم ولممالك الإسلام عامة من جليل الأثر وعظيم المفاخر .

وقد أجمع المؤرخون على أنه ولد ببلاد القفجاق [1] وقضى بها شطراً من حياته الأولى إلى أن بيع لأحد تجار الرقيق على أثر هجوم المغول على هذه البلاد سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢م) . غير أنهم اختلفوا فى الجهة التى بيع فيها بعد ارتحاله عن موطنه .

يحدثنا المقريزى [2] أن تاجراً قدم به إلى حماه . ولما عرضه على الملك المنصور محمد لم يعجبه [3] فبيع بدمشق بثمانمائة درهم ثم رده مشتريه لبياض

---

(١) تشمل بلاد القفجاق حوض الفلجا والأراضى التى حول بحر قزوين .

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك طبعة الدكتور زيادة ج ١ القسم الثانى ص ٦٣٧.

(٣) أورد ابن واصل « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » ج٢ ص ٤٠٤ ب ، فى هذا الصدد قصة طريفة عن سبب رفض الملك المنصور شراء بيبرس ثم ذكر ماحدث لبيبرس بعد ذلك مفصلا . وهاك نصها مع بعض التصرف : « وكان السلطان الملك المنصور إذ ذاك فى سن الصبا . وكان من عادته أنه متى أراد شراء رقيق أحضر لتراه الصاحبة والدته فمن أشارت بابتياعه أخذ . وكان الملك المنصور لما بلغه وصول الملك الظاهر مع التاجر تقدم بإحضاره فأحضر ومعه خشداش=

فى إحدى عينيه ؛ فاشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار [1] مملوك الملك الصالح نجم الدين أيوب وهو معتقل بحماه وأقام فى خدمته مدة ثم أخذه منه الملك الصالح.

ويروى الشيخ قطب الدين اليونينى المتوفى سنة ٧٢٦ ﻫ فى كتابه «الذيل على مرآة الزمان [2]»، وأبو المحاسن المتوفى سنة ٨٧٤ ﻫ فى كتابه «النجوم الزاهرة [3]» عن هذه المسألة رواية يستفاد منها أن بيبرس قدم إلى سيواس [4] على أثر بيعه ببلاده ثم نقل إلى حلب وبيع بعد ذلك بالقاهرة للأمير علاء الدين أيدكين البندقدار وظل عنده حتى أخذه منه الملك الصالح عندما قبض عليه فى شوال سنة ٦٤٤ ﻫ.

بدأ بيبرس على أثر انتقاله إلى ملك الملك الصالح [5] حياة جديدة تغاير

= له وعرضا على الصاحبة فرأتهما من داخل الستارة . فلما استأذنها السلطان ولدها فى شرائهما . قالت له : خذ المملوك الأبيض والأسمر لا يكون بينك وبينه معاملة (يعنى الملك الظاهر) فإن عينيه فيها الشر لا يبيع . فردهما على التاجر . ولما بلغ الأمير علاء الدين البندقدار حضور هذين المملوكين اللذين جلبا بعث فى طلبهما . وعندما قدما إليه اشتراهما وهو فى الاعتقال وظلا عنده حتى أفرج الملك الصالح نجم الدين أيوب عنه وتوجها بهما إلى مصر فأخذهما الملك الصالح منه» .

(١) البندقدار : هو حامل الجراوة (كيس البندق) خلف السلطان أو الأمير . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٠٥ ؛ ج ١ ص ٤٥٨

(٢) ج ١٧ ورقة ٩٨ (٣) ج ٣ القسم الثانى ورقة ٢٣٢ (٤) هناك عبارة وجهها رسول أيغا ملك التتار للظاهر بيبرس عندما قدم إليه للمفاوضة معه فى عقد الصلح سنة ٦٦٧ ﻫ يفهم منها أن بيبرس بيع بسيواس وهذه العبارة هى : « أنت مملوك وأبعت فى سيواس فكيف تشاقق الملوك ملوك الأرض » المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٧٣ – ٥٧٤

(٥) كان الصالح أيوب قد أعطاه أبوه الملك الكامل حصن كيفا وسيره إليه سنة ٦٣٠ ﻫ. وقد قصد بهذا أن يبعده عن مصر فيخلو بذلك الجو له ولولده العادل ولى العهد من بعده . المقريزى : السلوك ج ١ القسم الأول ص ٢٤٤

ولما توفى الملك الكامل سنة ٦٣٥ ﻫ بدمشق اتفق رأى الأمراء بمصر على أن يولوا ابنه الأمير أبا بكر ولقبوه بالملك العادل فاستاء لذلك الملك الصالح وانتهز فرصة استدعاء المصريين له بمغادرة الشام الى مصر ليستولى عليها فاعتقله الناصر داود صاحب الكرك بنابلس وما لبث أن أطلق سراحه وتحالف معه على أن تكون مصر للصالح أيوب والشام للناصر . وفى هذه =

تمام المغايرة ما كان عليه فى حياته الأولى من يوم أن وصل إلى بلاد الشام . فقد اتخذه الملك الصالح سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) رئيساً لإحدى فرق حرسه الخاص [١] لما رآه فيه من الهمة الشماء والفطنة والذكاء ، وظل يرتفع ذكره ويسمو قدره ويتدرج فى المناصب حتى أصبح قائداً لفرقة المماليك التى كان لها الفضل الأكبر فى صد حملة لويس التاسع عن مصر .

وقبل أن نتكلم عن الدور الذى قام به المماليك فى صد هذه الحملة يجمل بنا أن نذكر شيئاً عن سبب قيامها والعقبات التى صادفتها حتى أشترك بيبرس فى صدها :

لما انقضت الجيوش الخوارزمية [٢] على سوريا سنة ١٢٤٤ م وخربت بيت المقدس أثار ذلك ملوك أوربا واتجهت مجهودات لويس التاسع ملك فرنسا إلى تجهيز حملة صليبية لمهاجمة مصر يقودها بنفسه ويكون عمادها الفرنسيون [٣] . غير أن هذه الحملة لم تلبث أن عصفت بها العواصف عند مرورها بقبرس فى أوائل سنة ١٩٤٩ م . فجنح أكثر من نصف سفنها إلى سواحل الشام ولم يصل منها سوى سبعمائة قطعة ، ونزح سكان دمياط إلى منزلة المنصورة على أثر ظهور سفن الملك لويس التاسع وتركوا مراكب التعدية

= الأثناء كانت قد دبرت مؤامرة بمصر لخلع الملك العادل يؤاتفق المماليك الكاملية على استدعاء الملك الصالح فسار ومعه مماليكه الى مصر وأعلن نفسه سلطانا عليها سنة ٦٣٧ هـ . وقبض على أخيه العادل وظل فى السجن حتى مات سنة ٦٤٥ هـ . المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٢٦٧ و ٢٩٤ — ٢٩٦ .

(١) Enc. Isl. Art Baibars I.

(٢) أولاء الخوارزمية هم عسكر جلال الدين الخوارزمى . وقد ساروا بعد مقتله إلى كيقباذ ملك الروم السلاجقة ثم فارقوه لما قبض على أكبر مقدميهم ، فاستمالهم الصالح أيوب واستأذن أباه الملك الكامل فى استخدامهم فى جيشه فأذن له بذلك . أبو الفدا : ج ٣ ص ١٥٩ .

(٣) Stevenson, The Crusaders in the East. p.p.324-326.

فعبرت جيوش لويس عليها بدون عناء [١].

وعلى الرغم من ذلك فقد أخطأ قائد تلك الحملة بتأخره فى التقدم جنوبا إذ كان يجب عليه أن يتقدم بسرعة نحو القاهرة قبل حلول زمن الفيضان وقبل أن يفيق المسلمون من صدمة الفرار عن دمياط. وبدلا من التقدم بسرعة ضرب الملك لويس خيامه وظل ينتظر وصول المراكب التى بعثرتها العواصف، ثم تقدمت جيوشه من دمياط فى طريقهم إلى القاهرة بعد أن أقامت فيها ستة شهور. غير أن جهلها الطريق كان سبباً فى تأخيرها فاستغرقت شهراً كاملا فى قطع الطريق بين دمياط ومنزلة المنصورة وهو لا يزيد على خمسين ميلا وبتأخر تلك الحملة فى دمياط وتعثرها فى الطريق ذلك الوقت الطويل أتيحت للمسلمين الفرصة لجمعوا شملهم وضموا صفوفهم [٢].

أما الصليبيون فإنهم وصلوا إلى شارمساح — وتقع فى منتصف الطريق بين دمياط والمنصورة — ولكى يتقدموا جنوباً وينفذوا فكرة مهاجمة القاهرة كان عليهم أن يعبروا فرع دمياط أو قناة أشموم طناح. فاختار لويس الطريق الأسهل وعمل على بناء سد فى عرض النهر الصغير [٣]، وأنشأ أبراجاً متحركة لتحمى الجنود الذين يعملون فى السد. غير أن المسلمين بدأوا فى مناوشة هؤلاء الجنود وعبرت فرقة منهم هذا النهر من مكان بعيد وحاولت تطويق مؤخرة الجيش الصليبى فطاردها الملك لويس ولكن معسكره على الرغم من ذلك كان معرّضاً للخطر من جميع الجهات [٤].

(١) Davis, The Invasion ; Joinville, Memoirs of the Crusades p.116. of Egypt by Louis IX of France p. 26.

(٢) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages pp. 232-233.

(٣) ويعرف الآن باسم البحر الصغير.

(٤) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 324.

وفى تلك الأثناء تقدم أحد أهالى بلدة سلامون وعرض على الصليبيين أن يدلهم على مخاضة كبيرة جهة أشموم طناح فى مقابل مبلغ من المال (١). فاستخدمه الملك لويس دليلا ، وسير فرقة الخيالة على ثلاث دفعات ، أولها الفرسان الداوية ، وثانيها الخيالة الرماة وعلى رأسها روبرت كونت أرتوا (Robert Count d'Artois) (أخو الملك لويس) ، وثالثها فرقة الملك (٢).

لم يلق الصليبيون مقاومة وهم يعبرون النهر أول الأمر . غير أن روبرت كونت أرتوا بمجرد عبور الفرقة الثانية عزم على التقدم للحاق بالعدو ثم اقتحم معسكر المسلمين، فاخترقه من مقدمته إلى مؤخرته وتمكن بعض الفرسان من قتل القائد فخر الدين فانهزم المسلمون وتفرقوا . ثم دارت الدائرة على الصليبيين فقد ثبتت فرقة المماليك أمام هذا الهجوم العنيف وحالت بينهم وبين ما أرادوا من الإستيلاء على قصر السلطان . وكان قائد تلك الفرقة بيبرس الذى انقض عليهم وقلب نصرهم هزيمة واندفع جنود الصليبيين فى شوارع المنصورة وسقط كثير منهم قتلى من بينهم الكونت أرتوا وفرقته (٣).

أما بقية الصليبيين فلحقت بالملك لويس عند السد الذى كان قد شرع فى بنائه على النهر الصغير . وقد عرض نفسه بموقفه هذا لهجوم الفرق المملوكية التى أحاطت به وأصبح من الصعب عليه أن يهزم جيش المسلمين وخاصة بعد أن فقد كثيراً من فرسانه ولم يبق معه إلا الجنود المشاة الذين لا يستطيعون الحرب إلا بالسيوف .

وعندما أصبح مركز لويس حرجاً فكر فى بناء جسر مؤقت على الجزء الذى لم يتمه من السد . ولما تم بناؤه استطاعت فرقة من الضفة الأخرى أن

---

(١) Davis, The Invasion of Egypt by Louis IX of France, p. 38

(٢) Stanley Lane-Poole; op. cit. p. 234.

(٣) Stanley Lane-Poole, Op. Cit pp.234-235; Davis, The Invasion of Egypt by Louis IX of France pp. 38-39

تأتى لنجدته ؛ غير أن النجاح فى بناء هذا الجسر لم يغير شيئاً من موقف جيش لويس فلم يمهله المسلمون حتى عاودوا الهجوم عليه موجهين همهم نحو هذا الجسر فى الوقت الذى لم يكن لهم سلطان يأتمرون بأمره . فقد توفى الملك الصالح فى نوفبر سنة ١٢٤٩ م عندما بدأ الصليبيون يتقدمون نحو المنصورة . وكان ابنه وولى عهده الملك المعظم تورانشاه بعيداً عن مصر بحصن كيفا (١) فرأت زوجه شجرة الدر أن تخفى وفاته حتى لا يتطرق الوهن إلى نفوس المسلمين فيفرون من ساحة القتال إذا علموا بموت السلطان وبذا يتم للصليبيين الاستيلاء على الديار المصرية ، وأحضرت الأميرين فخر الدين والطواشى جمال الدين محسن وهما من حاشية السلطان وخاصته وأسرت إليهما بموت الملك الصالح واتفقت معهما على القيام بتدبير شئون الدولة حتى يحضر ابن زوجها تورانشاه من حصن كيفا (٢) . فأخذ الأمير فخر الدين يصدر الأوامر مذيلة بتوقيع السلطان الملك الصالح ؛ وقد قيل إنها كانت بخط خادم يقال له سهيل يشابه توقيعه توقيع الملك . ولما وقف حسام الدين نائب القاهرة على حقيقة الأمر وعلم بوفاة السلطان اشتد خوفه من الأمير فخر الدين فكتب إلى تورانشاه يطالب منه التعجيل بالحضور ، كما أمر الخطباء بأن يدعو على منابر القاهرة يوم الجمعة لتورانشاه بعد الدعاء لأبيه الملك الصالح (٣).

ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى قدم تورانشاه إلى مصر . فنزل بقصر السلطنة بالمنصورة وسلمته شجرة الدر مقاليد الأمور فأخذ يشرف على الحرب بنفسه ويدبر خطتها برأيه الصائب ونظره الثاقب واستطاع بذلك أن يختم واقعة المنصورة بنصر على الصليبيين . وكان أول ما قام به من الأعمال أن نقل

---

(١) Stanley Lane-Poole, Op. Cit pp. 236-237.

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٤٣ — يقع حصن كيفا على الضفة الغربية لنهر دجلة بالقرب من آمد .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٤٤ — ٣٤٥

أسطولا [١] من المراكب على ظهور الجمال إلى نقطة على فرع دمياط شمالى المراكب الفرنسية . وهناك اشتبك الأسطولان المصرى والفرنسى ودارت الدائرة على الأخير بعد أن خسر كثيراً من مراكبه .

ساء مركز لويس بعد هذه الهزيمة إذ لم يصبح لديه من القوى ما يستطيع بها مقاومة تقدم المسلمين وكذلك لم يبق لديه من الميزة ما يعينه على الوقوف أمام المصريين والمماليك . فضاقت الوسائل بالصليبيين وثارت نفوس الجند من قلة الأزواد وتفشى فيهم الوباء وظل الملك لويس صابراً لا يجد وسيلة تخلصه من هذا المأزق ؛ فاضطر إلى طلب الهدنة وتسليم دمياط على أن يأخذ الصليبيون القدس وبعض بلاد الساحل ؛ فأبى عليهم المصريون ذلك . فأحرق الصليبيون أخشابهم وأتلفوا مراكبهم ولجأوا إلى التحصن فى دمياط . فركب المسلمون أقفيتهم وحاربوهم حتى أوصلوهم إلى فارسكور ؛ وهناك حملوا على الفرنجة حملة صادقة [٢] واستماتت المماليك فى الدفاع بقيادة بيبرس حتى أزاحوا الصليبيين عن موقفهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، كما أسروا كثيراً من الأمراء والجنود وامتلأت أيديهم بالغنائم من السلاح وغير ذلك [٣] .

أما لويس فإنه التجأ مع بقية جيشه إلى تل منية عبد الله بالقرب من المنصورة واعتصموا به ، فتبعهم المسلمون وشددوا عليهم الحصار فاضطروا إلى التسليم على أن يؤمنوا على حياتهم . وكان يبلغ عددهم خمسة آلاف معظمهم من الفرسان والأشراف ، وسيق لويس معتقلا إلى دار القاضى إبراهيم ابن لقمان بالمنصورة [٤] ، ثم أفرج عنه بعد أن دفع مبلغاً كبيراً من المال وبعد أن تم الاتفاق معه على إخلاء دمياط [٥] .

---

(١) حملت هذه المراكب من سمنود إلى القناة التى تعرف الآن باسم بحر شبين Davis, Invasion of Egypt By Louis IX of France p. 46

(٢) Stanly Lane-Poole, Op. Cit. p23.8.

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص٣٥٥ — ٣٥٦

(٤) تعرف الآن بسجن لويس ويقصد إليها كثير من السياح والزائرين وقد نقش على بابها تاريخ أسر لويس بها

(٥) Davis, Op. Cit. pp. 51-57

علت كلمة المماليك البحرية وعلى رأسهم بيبرس واشتد أزرهم بهذا النصر المبين الذى أحرزوه فى موقعة فارسكور . وحينئذ نراهم يضمرون السوء لسلطانهم تورانشاه حين قرب إليه مماليكه وحاشيته الذين جاءوا معه من حصن كيفا وأحلهم محل مماليك أبيه البحرية فى مناصب الدولة ، ولتضييقه على زوجة أبيه شجرة الدر وتوعده لها إن لم تقر له بمال أبيه ، فلما ضاق بها الصدر وعيل منها الصبر أرسلت إلى المماليك تقول لهم « اقتلوا تورانشاه وعلى رضاكم » . فصادف قولها هذا هوى فى نفوس المماليك ، وزاد الطين بلة والطنبور نغمة ما كان يبلغهم عنه أنه إذا ثمل من الخمر يضع أمامه الشموع مصفوفة ويتناول بيده السيف ويضربها به واحدة بعد أخرى وهو يقول « هكذا أفعل بالمماليك البحرية » ويذكر أسماءهم واحداً بعد آخر . كل هذه الأمور أحفظت نفوسهم وأوغرت صدورهم وضاقوا بتحملها ذرعاً . فأجمعوا رأيهم على الفتك به وتولى أمراؤهم تنفيذ ما اعتزموا عليه بزعامة بيبرس ومعه من الأمراء قلاوون الصالحى وأقطاى الجامدار وأيبك التركمانى وغيرهم .

فلما أقيم السماط على أثر نزول تورانشاه بفارسكور سنة ٦٤٨ ﻫ تقدم إليه هؤلاء البحرية وبأيديهم السيوف فبادره ركن الدين بيبرس بالسيف على أصابعه فقطعها وتبعه فى ذلك الأمراء : ففر تورانشاه هارباً ودخل برجاً من الخشب كان قد أعده على النيل ليجلس فيه أيام إقامته بفارسكور ، وأغلق عليه بابه فأدركه بيبرس ومن معه وأضرموا النار فى البرج فألقى بنفسه فى النيل وأخذ يسبح طالباً النجاة بنفسه . فلم يغنه ذلك شيئاً ورموه بالنشاب من كل ناحية وهو يستغيث ولا مغيث وينادى ولا مجيب ويقول « خذوا ملككم ودعونى أرجع إلى حصن كيفا » . فلم يلتفت أحد إلى قوله ولم يجد من يدفع عنه مخالب الموت وينجيه من القتل وانتهى أمره بأن مات قتيلا غريقاً حريقاً . ولما أيقنوا من وفاته انتشلوا جثته من النيل وتركوها على

شاطئه ثلاثة أيام . ولم يجرؤ أحد من حاشيته على دفنه ثم ووری التراب فى مكانها [١] .

بذلك انتهت حياة تورانشاه دون أن يجلس على عرش آبائه أو يدخل القاهرة مقر حكمهم . وبقتله انتهى حكم الأيوبيين بالديار المصرية وابتدأ عصر المماليك [٢] .

٢٤ — إنتقال السلطة إلى المماليك

اتفقت كلمة أمراء المماليك البحرية بعد قتل تورانشاه على تولية شجرة الدر مكانه[٣] . فأخذت تتقرب من أرباب الدولة وتمنحهم الرتب والإقطاعات كما خفضت الضرائب عن الأهلين لتستميل قلوبهم وساست الرعية أحسن سياسة [٤] . على أن الناس على الرغم من ذلك قد كرهوا حكمها إذ لم تجر عادة المسلمين بأن يتقلد حكمهم امرأة [٥] . فخرج أهل سوريا عن طاعتها وبايعوا الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب .

ولما علمت بذلك شجرة الدر آثرت المحافظة على كيان الدولة وأظهرت رغبتها فى التخلى عن الحكم . فأشار عليها القضاة والأمراء بأن تتزوج من عز الدين أيبك التركمانى أتابك العساكر وتفوض إليه أمور الدولة [٦] ، فقبلت ذلك ونزلت عن سلطنة مصر لزوجها بعد أن لبثت فى الحكم ثمانين

---

(١) المقريزى السلوك : ج ١ القسم الثانى ص ٣٥٨ — ٣٦٠ ، أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ١٨١

(٢) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 239.

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٦١

(٤) ابن إياس : ج ١ ص ٨٩

(٥) لما علم الخليفة المستنصر بالله العباسى بتولية شجرة الدر سلطنة مصر غضب على أهل مصر وكتب إليهم بأن يولوا عليهم رجلا منهم أو يرسل لهم من يصلح للحكم إن لم يوجد بمصر من يصلح له . المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٦٨

(٦) Stenley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 250

يوماً برهنت فيها على كفاءة ممتازة وحكمة نادرة فى تصريف الأمور وتدبير الملك (١).

وقصارى القول فقد كانت شجرة الدر ذات ذكاء وقاد وشجاعة نادرة وشخصية ممتازة قل أن يوجد لها نظير. ولا عجب فى هذا فقد حنكتها التجارب من يوم أن اتصلت بزوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب.

وعندما تخلت شجرة الدر عن العرش أقام أمراء المماليك عز الدين أيبك أتابك العسكر سلطاناً على مصر ولقبوه بالمعز؛ غير أنهم لم يلبثوا بعد ذلك أن طالبوا بتنصيب أحد أمراء البيت الأيوبى معه فى السلطنة واتفقوا على تولية الأشرف مظفر الدين موسى وله من العمر ست سنين (٢). وقد علل ابن واصل (٣) رغبة هؤلاء الأمراء فى إشراك أحد الأيوبيين مع المعز أيبك إلى أنفتهم من الخضوع له ورغبتهم فى التدخل فى شئون الدولة.

انتهز الملك الناصر صاحب الشام فرصة هذا الاضطراب الذى ساد مصر فى ذلك الوقت وخرج بعساكره من دمشق يريد الاستيلاء عليها. فلما ورد الخبر بذلك إلى مصر اضطربت الدولة، وقبض المعز أيبك على جماعة من الأمراء اتهموا بالميل للملك الناصر وأعد العدة لملاقاته حتى قدمت جيوشه إلى مصر واشتبك الفريقان بالقرب من العباسة فى معركة هزم فيها المصريون أول الأمر؛ ثم لم يلبثوا بعد ذلك أن هاجموا الناصر وجيشه فولوا منهزمين نحو الشام (٤).

ازداد نفوذ المماليك البحرية على أثر هذا الانتصار الذى أحرزه المعز على جيوش الشام بفضل جنودهم الذين أبلوا بلاء حسناً فى صد جيوش الناصر؛

---

(١) ابن إياس: ج ١ ص ٩٠

(٢) المقريزى: السلوك القسم الثانى ج ١ ص ٣٦٩

(٣) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ج ٢ ص ٣٧٦

(٤) أبو المحاسن: ج ٣ ص ١٨٤ — ١٨٥

فارتكبوا كثيراً من الفظائع مع أهل مصر . وفى ذلك يقول المقريزى [١]: «فنزل بالناس من البحرية بلاء لا يوصف ما بين قتل ونهب وسبي بحيث لو ملك الفرنج بلاد مصر ما زادوا فى الفساد على مافعله البحرية وكان كبراؤهم ثلاثة : الأمير فارس الدين أقطاى ، وركن الدين بيبرس البندقدارى ، وسيف الدين بلبان الرشيدى» .

لم يكد المعز أيبك يفرغ من صد جيوش الناصر عن مصر حتى وصلت إليه الأخبار سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) بأن هولاكو سار من قره قورم (Karakarum) ومعه تعليمات من أخيه ملك التتار خلاصتها القضاء على الإسماعيلية بفارس وهدم الخلافة العباسية ببغداد [٢] . فانتهز المعز هذه الفرصة وأزال إسم الملك الأشرف موسى من الخطبة وقبض عليه وسجنه وانفرد بالسلطة دونه وأرهق الأهلين بجمع الأموال الكثيرة والمكوس التى لم تكن مقررة من قبل وعين الأمير سيف الدين قطز نائباً للسلطنة بمصر ؛ ثم عقد صلحاً مع الملك الناصر يوسف صاحب الشام تقرر فيه أن يكون للمعز إلى نهر الأردن وللملك الناصر ما وراء ذلك [٣] .

ولما اطمأنت نفس المعز أيبك من ناحية بلاد الشام شرع فى تهدئة ثائرة العرب بالوجه البحرى والصعيد الذين اجتمعوا على شخص من ذرية على بن أبى طالب يسمى حصن الدين بن ثعلب ؛ فأرسل إليهم الأمير فارس الدين أقطاى وغيره من الأمراء فاقتتل الفريقان بالقرب من بلبيس وتفرق كثير من العرب عن حصن الدين ، فولى منهزماً ؛ ثم سار المماليك لإخضاع عرب الغربية والمنوفية فهزموهم بناحية سخا وسنهور ولحق الشريف حصن الدين بمن بقى من أصحابه وبعث يطلب الأمان من الملك المعز فأمنه ؛ غير أن المعز لم يلبث أن نقض

---

(١) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار : ج ٢ ص ٢٣٧

(٢) Browne, A Literary Hitory of Persia, Vol. II. pp. 452, 453

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٨٤ — ٣٨٥

الأمان عندما سار حصن الدين إلى بلبيس إذ قبض عليه وأرسله إلى الإسكندرية وقتل أتباعه وبذلك تبدد شمل العرب فى مصر[١] .

ويرجع سبب هذه الثورة إلى انتشار روح القومية بين العرب المقيمين بمصر الذين يرى كثير منهم أن مصر عربية ديناً ولغة وعادات وأنه لا بد لهم من ملك عربى مستقل يحكمهم ؛ فغضبت نفوسهم وثارت حميتهم لإمارة الأتراك والمماليك عليهم . وليست هذه الروح جديدة فيهم بل لقد دب دبيبها منذ عهد الدولة الطولونية حين قامت الفتن والثورات على أيدى العرب فى مصر ضد الطولونيين والأتراك[٢] .

لم يبق أمام المعز بعد ذلك إلا منافسه فارس الدين أقطاى وكان قد استفحل أمره فى ذلك الوقت ؛ فرأى أن يتخلص منه ويشتت شمل من معه من الجنود وخاصة بعد أن طلب منه الإقامة بقلعة الجبل ، فاتفق مع طائفة من مماليكه المعزية[٣] على قتله إذا مر بهم ، فوثبوا عليه عند باب قاعة الأعمدة (بالقلعة) بسيوفهم فأذاقوه كأس المنون وأغلقت أبواب القاعة وشاع خبر قتله فاجتمع أنصاره وأعوانه من المماليك البحرية وأحاطوا بالقلعة فرمى إليهم المعز برأس أقطاى فسقط فى أيديهم وانفضوا خائبين وأدركوا أن المكيدة لاحقة بهم[٤] ، فاجتمع رؤساؤهم بيبرس وقلاوون الألفى وسنقر الأشقر والأمير بيسرى وغيرهم وقرروا الخروج إلى البلاد الشامية . وسرعان ما علم المعز بنواياهم فأغلق دونهم أبواب القاهرة ولكنهم أحرقوا باب

---

(١) المقريزى : نفس المرجع ص ٣٨٦ — ٣٨٨

(٢) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages pp. 259, 261-262

(٣) كان المعز قد أهمل جانب المماليك البحرية واتخذ له مماليك غيرهم سموا بالمماليك المعزية .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٨٩ — ٣٩٠

القراطين [١] وخرجوا منه هاربين صوب مقصدهم واختفى غيرهم ممن لم يسايروهم . ولما تشتت شملهم استصفى المعز أملاكهم واسترد ما كان لديهم من الأموال والذخائر وأعاد ما أخذه أقطاى إلى بيت المال وأضاف أعمال الإسكندرية إلى أعمال السلطان وبذلك صفا له الجو وانفرد بتدبير المملكة [٢]

خرج بيبرس ومعه أمراء المماليك قاصدين الشام ولما وصلوا غزة كاتبوا الناصر يوسف صاحب حلب يستأذنونه فى القدوم عليـــه فأذن لهم [٣] ؛ وعندما وصلوا إليه قابلهم بالترحاب وأكرم وفادتهم وشملهم بعطفه ولين جانبه وأقطعهم البلاد الساحليـة . ولما استقروا لديه أغروه بمحاربة مصر والاستيلاء عليها ؛ فصادف كلامهم هوى فى نفسه فبادر بتجهيز جيش إلى القاهرة ، وسرعان ما أعد سلطان مصر جيشه أيضاً وغادر المدينة ليقطع الطريق على الجنود الشامية ويقاتلهم قبل أن يدخلوا بلاده .

التقى الجيشان عند قرية العباسة ولم يجر بينهما قتال ،بل دارت المفاوضات وتم الأمر بالصلح على أن يكون للملك المعز ما كان للملك الصالح نجم الدين أيوب (أى ساحل الشام ومصر) وعلى ألا يؤوى الملك النـاصر أحداً من المماليك البحرية [٤] وعاد كل إلى بلده سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) .

هذا ولا يفوتنا أن نذكر أن المعز أيبـك بعد انفراده بالسلطنة فلت زوجه شجرة الدر من شوكته ، ووقع بينهما التشاحن والتباغض وأثار غضبها ما كان من خطبته من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ؛ فعملت على اغتياله وأرسلت إليه توهم أنها باقية على طاعته وقد رجعت عما كان يلاحظ

---

(١) عرف هذا الباب بعد ذلك بالباب المحروق وهو باب القاهرة الشرقى : Lane-Poole Cairo, p. 129

(٢) ابن خلدون : ج ٥ ص ٣٧٥ و ٣٧٦ ؛ المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٨٨ — ٣٩٢

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٩٢

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٩٨

عليها من غطرسة وشدة . وكانت قد أعدت خمسة من الخدام وأمرتهم بقتله إذا ما أمكنتهم الفرص ؛ فقام هؤلاء الخدام بما أمروا به وقتلوه داخل الحمام (ربيع الأول سنة ٦٥٦ هـ) وأشاعوا أنه قد أغمى عليه . وفى الصباح أذيع قتله بين الناس فدفنه ابنه على ومماليكه ثم قبضوا على شجرة الدر وسلموها إلى الجوارى فضربنها بالنعال حتى ماتت فى ربيع الثانى من هذه السنة وألقيت جثتها فى أحد الخنادق ثلاثة أيام ثم دفنت بتربتها المعروفة باسمها اليوم .

ولى الأمراء مكان المعز أيبك إبنه عليا وعمره خمس عشرة سنة وكان القائم بتدبير المملكة إذ ذاك علم الدين سنجر الحلبى والوزير شرف الدين بن صاعد الفائزى . فلما تم الأمر لعلى بن أيبك الملقب بالملك المنصور نور الدين ولى سيف الدين قطز [1] نيابة السلطنة بمصر وقبض على وزيره شرف الدين واستولى على امواله ؛ ثم ولى فارس الدين أقطاى المستعرب أتابكية العسكر بدلا من علم الدين سنجر .

استمر قطز فى النيابة لابن أيبك وتولى قيادة الجيش لصد المماليك البحرية . وفى عهد على هذا كانت إغارة التتار على البلاد الشامية بعد أن دمروا بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم واستولوا على حلب وغيرها من البلدان [2] .

لم يرض المماليك البحرية بالصلح الذى عقـــد بين الملك الناصر والمعز أيبك ، ونمى إلى الناصر أنهم يريدون الفتك به فأجلاهم إلى غزة ؛ وهناك كتبوا بالطاعة إلى الملك المغيث صاحب الكرك ، فأرسل إليهم الناصر عسكراً لمقاتلتهم فانتصر عليهم المماليك البحرية وهزموهم ، ثم أعاد عسكر الناصر

---

(١) كان قطز من أولاد الملوك الخوارزمية . يقال إنه ابن أخت خوارزم شاه واسمه محمود بن مودود وقد أسر فى حروب التتر وبيع بدمشق للمعز أيبك . ابن خلدون ج ٥ ص ٣٧٩
Enc. Isl. Kutus, s. v.

(٢) ابن إياس : ج ١ ص ٩٤ .

الكرة فانتصروا وطردوا البحرية إلى البلقاء [١] ملتجئين إلى المغيث فأنفق عليهم أموالا ضخمه وأطمعوه هو أيضاً فى ملك مصر فجهزهم بالعدد والعدد [٢]، وساروا متجهين إلى مصر وخرج الجيش المصرى يقوده سيف الدين قطز، والتقى الفريقان بالصالحيـــة فانهزم المماليك البحرية ومن معهم وأسر منهم قلاوون الصالحى وبلبان الرشيدى وغيرهما، ثم أطلق سراح قلاوون بعد أيام ولحق بأصحابه بالكرك [٣].

أما عن موقف الملك الناصر فى ذلك الوقت فإنه أنفذ ابنه الملك العزيز إلى هولاكو يطلب منه النجدة للاستيلاء على مصر من المماليك، فأجابه هولاكو إلى ماطلب. غير أن المماليك البحرية الذين كانوا بدمشق فى ذلك الوقت لما سمعوا بذلك ساروا إلى الملك المغيث بالكرك وحببوا إليه أخذ مصر، فسار فى عساكره سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م)، وقدم إليه بعض الأمراء الذين كاتبوه من مصر وتقدم إليهم قطز فى عسكر مصر والتقى بهم فهزمهم وفر المغيث إلى الكرك [٤]. أما المماليك البحرية فانهم ذهبوا إلى الطور [٥] واجتمعوا بمن هناك من الأكراد الفارين من التتار وصاهروهم. وقد أثار هـذا الاجتماع مخاوف الناصر فجهز إليهم عسكراً من دمشق والتقى الفريقان بالطور فهزمت عساكر الناصر؛ ثم عاود قتالهم وسار على رأس جيشه فخاف المماليك البحرية لقاءه وتركوا الأكراد وذهبوا إلى بلاد الكرك، فأرسل الناصر إلى المغيث يتوعده إن لم يسلم هؤلاء البحرية. وترددت الرسل بينهما وانتهى الأمر بأن اتفقا على أن يتسلم الناصر من المغيث طائفة المماليك البحرية وأن يبعد عن المغيث الشهرزورية [٦]

(١) كورة من أعمال دمشق. ياقوت: معجم البلدان.
(٢) أبو الفدا: ج ٣ ص ١٩٢ و ١٩٣.
(٣) المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٠٦.
(٤) أبو الفدا: ج ٣ ص ١٩٥؛ المقريزى: السلوك ص ٤١٠ و ٤١١.
(٥) المقصود بها طور سيناء
(٦) المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤١٤؛ والشهرزورية نسبة إلى شهرزور وهى =

لما علم بذلك بيبرس هرب ومعه جماعة من البحرية إلى الملك الناصر فأحسن إليهم، وقبض الملك المغيث على من بقى عنده من المماليك البحرية وبعث بهم إلى الناصر لحبسهم بقلعة حلب [١]. وقد ظلوا بها إلى أن استولى التتار عليها وأخذهم هولاكو مع من أسر إلى بلاده [٢].

يتضح لنا مما تقدم كيف ازداد نفوذ المماليك البحرية وعلى رأسهم بيبرس كما نرى من هذه المنازعات التى حدثت بينهم وبين المعز أيبك كيف أن السلطة فى مصر يتنازعها فريق من أمراء المماليك؛ وكان لهذا أثره فى حالة مصر الداخلية فى ذلك الوقت فشغل المعز أيبك وابنه من بعده عن إصلاح مرافق البلاد بالقضاء على هذه المشاغبات التى أثارها المماليك البحرية. وان الناظر إلى هذه المناقشة التى دارت بين علاء الدين سلطان السلاجقة الروم والأمير علم الدين سنجر الباشقردى على أثر الكتاب الذى أرسله المعز أيبك إلى سلطان الروم عندما التجأ إليه فريق من المماليك فراراً من غدر المعز أيبك بهم ليقف على مبلغ العداء المستحكم بين المعز أيبك والمماليك البحرية. وفى ذلك يقول المعز فى كتابه إلى سلطان الروم «البحرية قوم مناحيس أطراف لا يقفون عند الإيمان، ولا يرجعون إلى كلام من هو أكبر منهم، وإن استأمنتهم خانوا، وإن استحلفتهم كذبوا، وإن وثقت بهم غدروا، فتحرز منهم على نفسك فإنهم غدارون مكارون خوانون، ولا آمن أن يمكروا عليك». كان لهذا الكتاب أثره فى سلطان الروم؛ فأرسل يستدعيهم فلما حضروا قال لهم: «ياأمراء مالكم ولأستاذكم»؟ فتقدم الأمير علم الدين سنجر الباشقردى وقال: يامولانا

= إحدى جهات كردستان. وكان بتلك الجهة جماعة من الأكراد ظلوا بها حتى استولى هولاكو على بغداد وتقدمت جيوشه شمالا نحو شهرزور وغيرها، ففر الشهرزورية من وجه التتار إلى الشام ومصر. Enc. Isl. Art. Shehrizur

(١) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ١٩٨.

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٥ ص ٣٧٨.

من هو أستاذنا ؟ قال : « الملك المعز صاحب مصر » . فقـــال الباشقردى · « يحفظ الله مولانا السلطان ! إن كان الملك المعز قال فى كتابه إنه أستاذنا فقد أخطأ ، إنما هو خوشداشنا[1] ونحن وليناه علينا وكان فينا من هو أكبر منه سناً وقدراً وأفرس وأحق بالمملكة . فقتل بعضنا وحبس بعضنا وغرق بعضنا فهربنا وتشتتنا فى البلاد ونحن التجأنا إليك[2] » .

لما علم قطز بما فعله التتار بالمدن الشامية وأنهم على وشك الهجوم على مصر جمع أمراء دولته وقال لهم « لابد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو ، والملك المنصور صبى لا يعرف تدبير المملكة » . والواقع أن الملك المنصور كان مستهتراً بأمور الدولة ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تدخلت أمه فى إدارة شئون البلاد فاضطربت الأمور وساعد ذلك قطز على الطمع فى الوصول إلى سلطنة مصر ، فانتهز فرصة خروج الأمراء للصيد وقبض على الملك المنصور وأخيه وأمهما واعتقلهم بقلعة الجبل وأعلن نفسه سلطاناً على مصر (٦٥٧ هـ = ١٢٠٩ م) . فلما علم بذلك الأمراء أنكروا عليه هذا العمل ، فاعتذر إليهم بقوله « إنى ماقصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر ولا يتأتى ذلك بغير ملك فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم . أقيموا فى السلطنة من شئتم[3] » .

٣ — علو شأن بيبرس بين المماليك البحرية فى مصر

ذكرنا أن المماليك البحرية فروا من المغيث حين رأوا منه عين الغدر بهم ووصل بعضهم إلى مصر . وكانت هجمات التتار على البلاد الشرقية متوالية فى ذلك الوقت كما كانوا يتنقلون بسرعة من بلد إلى آخر ؛ ذلك أن هولاكو على أثر سقوط بغداد فى يده سار إلى ديار بكر ونزل على آمد يريد حلب ، ثم

(١) الخشداشية فى اصطلاح عصر المماليك بعض الأمراء الذين نشأوا عند سيد واحد فنبتت بينهم رابطة الزمالة القديمة وتقابلها فى الفرنسية (Comarades) الدكتور زيادة .

(٢) المقريزى . السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٩٣

(٣) المقريزى . السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤١٧ — ٤١٨

زحف على حران واستولى عليها ، وأرسل إبنه سموط إلى الشام وعندما وصل إلى ظاهر حلب خرج إليه نائبها الملك المعظم تورانشاه بن السلطان صلاح الدين من قبل ابن أخيه الملك الناصر ؛ فاقتتل الفريقان ودارت الدائرة على المسلمين ودخل التتار حلب(١) .

ولما بلغ الملك الناصر يوسف شروع التتار فى الاستيلاء على حلب كتب إلى الملك المغيث صاحب الكرك والملك المظفر قطز سلطان مصر يطلب منهما نجدة ؛ وكان الأمراء متخوفين من غارات هولاكو ، فأشار أحدهم وهو الأمير زين الدين الحافظى بمداراته والدخول فى طاعته . وهنا نجد موقفاً مشرفاً لبيبرس إذ أنه ماكاد يسمع حديث هذا الأمير حتى انقض عليه وضربه وقال « أنتم سبب هلاك المسلمين » فشكاه الأمير إلى الملك الناصر . ولم يلبث المماليك بعد ذلك أن هجموا على الملك الناصر ففر إلى قلعة دمشق ، ثم بادر إليه بعض الأمراء وأشاروا عليه بالخروج : فوافقهم على ما أرادوا وخرج إلى المعسكر (٢).

انتهز بيبرس هذه الفرصة وسار إلى غزة ؛ وهناك راسل الملك المظفر قطز وأرسل إليه علاء الدين طيبرس الوزيرى يطلب منه الأمان فكتب إليه قطز بأن يفد إليه ووعده بالوعود الجميلة (٣) .

وصل بيبرس مصر فى ربيع الأول سنة ٦٥٨ هـ ، فركب قطز للقائه وأنزله بدار الوزارة ، وأقطعه قليوب وأعمالها (٤) وجعله قائد جيشه . وسنرى مافعله هذا القائد مع سيده الذى أعتقه من مخالب الموت وأغدق عليه نعمه .

---

(١) أبو الفدا . المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ١٩٩ — ٢٠٠

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤١٩ — ٤٢٠

(٣) أبو الفدا . ج ٣ ص ٢٠٠

(٤) ابن واصل ج ٢ ص ٣٩٤ ؛ أبو الفدا ج ٣ ص ٢٠ ، المقريزى . السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٢٦

/ فى سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) أرسل هولاكو إلى مصر خطاب تهديد ووعيد إن هى امتنعت عن التسليم إليه والإذعان له . وإليك نصه كما ذكره كل من القلقشندى [1] والمقريزى [2] : « من ملك الملوك شرقاً وغرباً القائد الأعظم . باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم ، يتنعمون بأنعامه ، ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله فى أرضه خلقنا من سخطه وسلطنا على من حل به غضبه . فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ . فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد فعليكم بالهرب وعلينا الطلب . فأى أرض تؤويكم ، وأى طريق تنجيكم وأى بلاد تحميكم ؟ فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص . فخيولنا سوابق وسهامنا خوارق وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع والعساكر لقتالنا لا تنفع ودعاؤكم علينا لا يسمع ... إلى أن يقول : فأسرعوا برد الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها وترمى نحوكم شرارها ، فلا تجدون مناجاهاً ولا عزاً ، ولا كافياً ولا حرزاً وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منكم خالية . فقد أنصفناكم إذ راسلناكم ، وأيقظناكم إذ حذرناكم ، فما بقى لنا مقصد سواكم . والسلام علينا وعليكم وعلى من أطاع الهدى وخشى عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى » .

لما وصل هذا الكتاب إلى قطز جمع أمراءه وشاورهم فى الأمر — وقد

(١) صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٣ .

(٢) السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٢٧ — ٤٢٨ .

أحدق بهم الخطر وتهددهم هؤلاء التتار . فتردد بعض الأمراء أول الأمر فى الخروج لملاقاة هذا العدو العنيد ومبارزته وذلك خشية منه . وقر رأى قطز على قتل الرسل فقتلوا وعلقت رءوسهم على باب زويلة (١)

ولما كان يوم الإثنين ١٥ شعبان سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) خرج قطز بعسكر مصر ومن انضم إليهم عسكر الشام والعرب والتركمان وغيرهم من قلعة الجبل قاصدين الصالحية ؛ ولما بلغوها طلب قطز الأمراء وأمرهم بالرحيل فامتنعوا . فقال لهم « يا أمراء المسلمين ! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين » (٢) .

كان لهذا القول أثره فى نفوس أمراء المماليك الذين امتنعوا عن الرحيل من مصر لملاقاة التتار ، فلم يكد قطز ينتهى من حديثه حتى اتفقوا جميعاً على مهاجمة هذا العدو وصده عن البلاد .

عهد السلطان الملك المظفر قطز إلى الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى بأن يتقدم إلى بلاد الشام مع فريق من العسكر ليقف على أخبار المغول ، فسار بيبرس إلى غزة ، واضطرت حاميـــة المغول التى تنزل بها إلى الانسحاب ؛ وبذلك تيسر لبيبرس الاستيلاء على هذه المدينة ، وتبعه السلطان فى الخروج إلى بلاد الشام ؛ فلما نزل غزة واصل السير على رأس العساكر المصرية محاذياً الساحل نحو الشمال ، وضمن حياد الفرنجة بعكا ، ثم اجتمع بالأمراء وحثهم على إنقاذ الشام من المغول ونصرة الإسلام والمسلمين ، وطلب إلى الأمير بيبرس ملاقاة المغول ؛ فالتقى جيش المماليك بالمغول بالقرب من بيسان فى المكان المعروف بعين جالوت

---

(١) المقريزى السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٢٩ ؛ Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 262.

(٢) المقريزى السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٢٩

فى يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨هـ وأبلى الأمير بيبرس بلاء حسناً بين يدى السلطان ووقع القائد كتبغا صريعاً فى حومة القتال وارتد جيشه . وانتهت هذه المعركة بهزيمة المغول .

أعاد قطز الأمن إلى نصابه فى جميع المدن المخربة بالشام ، كما أعاد أمراء الأيوبيين على ولاية حمص وحماه على أن يدفعوا له الجزية ، وأقيمت الخطبة له فى البلاد التى بين حلب والفرات . وعند عودته من هذه المعركة التى أنقذت مصر وأعادت بلاد الشام وقع فريسة لذلك الحسد الذى طالما تعرض له قواد الجيش المنتصرون . وكان بيبرس أقدر هؤلاء القواد . وقد حال قطز دون تحقيق رغبته فى ولاية[1] حلب — وكان قد وعده بها — إلا أنه لم يف له بوعده وأعطاها لعلاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ[2] ، فكان ذلك الخلف مثيراً لكامن الضغينة والحقد اللذين كانا فى نفوس بيبرس وإخوانه على قطز منذ قتل الفارس أقطاى[3]؛ فأضمروا السوء له وحدث بيبرس جماعة من الأمراء فى قتل السلطان[4] .

على أن قطز قد أخطأ حين رفض أن يمنح بيبرس ولاية حلب ؛ فإنه لو كان قد منحه إياها لتمكن من إبعاد أكبر منافس له فى سلطنة مصر . لكنه لم يتريث فى هذا الأمر فأخلف وعده واعتقد أنه بعمله هذا يضعف من شأن بيبرس . غير أنه نسى أن المركز الذى كان يتمتع به بيبرس فى ذلك الوقت وخاصة بعد انتصاره على المغول وإخراجهم من دمشق وحلب وانتزاعه أكبر إمارات الشام من أيدى بنى أيوب لا يقلل من شأنه حرمانه من إحدى الولايات وخاصة إذا علمنا أنه كان على رأس فريق من المماليك لعب دوراً

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages. p.262.

(٢) أبو الفدا ج ٣ ص ٢٠٧

(٣) ابن خلدون ج ٥ ص ٣٨

(٤) المقريزى السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٣٥

خطيراً على مسرح السياسة المصرية . وكان قطز نفسه يخشى بأسهم وقد اضطر أخيراً إلى مصافاتهم والاعتماد عليهم فى صد ذلك العدو الخطير الذى اجتاح البلاد الإسلامية وقضى على الخلافة العباسية . فهذه السياسة التى اتبعها هذا السلطان إزاء قائد جيشه أودت به فى هوة سحيقة ؛ وكان الأجدر به أن يقرب إليه المماليك البحرية ويقطعهم الإقطاعات كما أقطع الأمراء المعزية وبذلك يتقى شرهم ويأمن جانبهم.

ولا ضير إذا قلنا إن هؤلاء المماليك البحرية — وعلى رأسهم بيبرس — نسوا ما قابلهم به قطز من الحفاوة والإكرام وإنزاله لهم منزلة رفيعة أيام كانوا ثائرين بعد فرارهم إلى الشام . نعم ! لقد نسوا هذا ولم يذكروا أن قطز هو الذى وهبهم الحياة بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من السيف وأجمعوا أمرهم على اغتياله .

تمت المؤامرة بين المماليك البحرية وعلى رأسهم بيبرس على أن يستريحوا من قطز وترقبوه وهو فى طريقه إلى مصر حتى إذا ما قارب الصالحية انشغل بالصيد ؛ فلما فرغ من ذلك طلب منه بيبرس بعض أسرى المغول فأنعم عليه قطز بامرأة من سبى التتار ؛ فما كان من بيبرس إلا أن تظاهر برغبته فى تقبيل يد السلطان وانقض عليه بالسيف وتبعه الآخرون بسيوفهم فأجهزوا عليه ؛ وكان ذلك فى شهر ذى القعدة سنة ٦٥٨ هـ [١] .

وهكذا انتهت حياة الملك المظفر قطز وثأر أعداؤه لأنفسهم وبعد أن قتلوه تركوه ملقى على الأرض وعادوا شاهرين سيوفهم إلى أن وصلوا إلى عرش الملك فجلس عليه بيبرس وأخذ المملكة بالقوة [٢] على ما سيأتى .

---

(١) أبو الفدا : ج٣ ص ٢٠٧

(٢) ابن إياس : ج ١ ص ٩٧

الباب الثانى

الموقف السياسى الداخلى فى عهد الظاهر بيبرس

١ - ازدياد نفوذ بعض الأمراء ومحاولتهم الاستقلال بولايتهم

٢- إحياء الخلافة العباسية

تمهيـــد :

وقع اختيار الأمراء بعد قتل الملك المظفر قطز على الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى، وتقدم إليه فارس الدين أقطاى المستعرب وبايعه وحلف له ثم تبعه الأمراء؛ وذلك قرب الصالحية قبل وصولهم إلى القاهرة [1]. فلما تمت البيعة قال له أقطاى: لا تتم لك السلطنة إلا بعد دخولك القاهرة وطلوعك إلى قلعة الجبل. فركب ومعه الأمير قلاوون وبلبان الرشيدى وجماعة آخرون فلقيهم فى طريقهم الأمير عز الدين أيدمر الحلبى نائب السلطنة — وكان خارجاً لمقابلة قطز — فأخبره هؤلاء بما حدث؛ فبايع بيبرس وقدم له فروض الطاعة ثم تقدمهم إلى القلعة ووقفوا على بابها حتى وصلوا ليلا. وكانت القاهرة قد زينت لقدوم قطز فرحاً به وسروراً لما فعله بالتتار واستبشاراً بقدومه إليها، واستمرت الزينة حتى قدم بيبرس رغم ما لحق الناس حين أشيع خبر تملكه وقتل قطز من هم ووجل خوفاً من ظلم المماليك البحرية ومعاودتهم ما كانوا عليه من الجور والفساد [2].

لما تولى بيبرس عرش مصر تلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحى فأشار عليه وزيره زين الدين بن الزبير بتغيير هذا اللقب وقال له

---

(١) ابن شاكر الكتبى . عيون التواريخ ج ٢٠ ورقه ١٥٦

(٢) مفضل ابن أبى الفضائل النهج السديد فيما بعد تاريخ أبى العميد ص ٦٥ — ٦٧
المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٣٦ — ٤٣٧

ما تلقب به أحد فأفلح ، فاستمع بيبرس لمشورته وتلقب بالملك الظاهر. [١]

أخذ بيبرس بعد تقلده سلطنة مصر يقرب الأمراء وكبار رجال الدولة إليه بمنحهم الألقاب والإقطاعات الواسعة ليشتد بهم أزره ويقوى بهم ساعده كما وجه اهتمامه إلى ترتيب شئون دولته وتنصيب الأمراء عليها ، فعين فارس الدين أقطاى المستعرب أتابكا للعسكر ، واستناب عنه فى السلطنة الأمير بدر الدين الخازندار ؛ وفوض إليه جميع أمور الدولة ، وصار صاحب الحل والعقد بها ؛ وولى تاج الدين بن بنت الأعز قضاء مصر ، وعزل الصاحب زين الدين بن الزبير من الوزارة وولى مكانه الصاحب بهاء الدين بن حنا [٢].

لم يكتف بيبرس بولاء الأمراء له ، بل أراد أن يستجلب رضى الرعية عنه ويبث فى نفوسهم عوامل المحبة له والميل إليه ؛ فأبطل كل ما أحدثه قطز من المكوس والضرب [٣]. فاطمأنت إليه النفوس وحمد له الناس هذا الصنيع وأشربوا محبته فى قلوبهم ؛ ثم جد فى إحضار المماليك البحرية الذين كانوا متفرقين فى البلاد منذ أن قتل الفارس أقطاى . وبذلك تلافى بطشهم بالأهالى لجمعهم حوله وأفاض عليهم من النعم الشىء الكثير.

١ — إزدياد نفوذ بعض الأمراء ومحاولتهم الإستقلال بولاياتهم :

لم يصف الجو تماماً لبيبرس على أثر اعتلائه عرش مصر ؛ إذ خرج بعض الأمراء عن طاعته وطالبوا بالملك لأنفسهم . ومن هؤلاء الثائرين

---

(١) أبو الفدا . المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢٠٨ ؛ أبو المحاسن . النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثانى ص ١٨٦ . ا

(٢) المقريزى . السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٣٨ ؛ ابن إياس . بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ١ ص ٩٨ — ٩٩

(١) كان قطز قد أثقل كاهل أهالى مصر بالضرائب فصار يأخذ منهم ثلث الزكاة وثلث التركة فرض ديناراً على كل فرد ؛ فبلغ مقدار ذلك نحو ٦٠٠٠٠٠ دينار فى السنة ، مفضل بن أبى الفضائل ، النهج السديد ص ٦٧ — ٦٨ ؛ ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ١٨٦

علم الدين سنجر الحلبي الذي استنابه الملك المظفر قطز بدمشق [١] . فقد نادى بنفسه سلطاناً عليها في ذي الحجة سنة ٦٥٨هـ ، وتلقب بالملك المجاهد وخطب له على منابرها وضربت السكة باسمه . ولم يكتف بذلك بل راسل الملك المنصور صاحب حماه والأشرف ابن شيركوه صاحب حمص ليدخلا في طاعته فامتنعا عن إجابة طلبه .

ولما علم بيبرس بخروج سنجر عليه ، جهز جيشاً مع علاء الدين أيدكين البندقداري لمحاربته ؛ فوصل هذا الجيش إلى دمشق في صفر سنة ٦٥٩هـ ، والتقى بجيش الحلبي بظاهرها فتغلب عليه وفر الحلبي وأتباعه هاربين إلى قلعة دمشق ، حتى إذا ما جن الليل خرج لا يلوى على شيء قاصداً بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحملوه إلى الديار المصرية فاعتقل بها [٢] ، وولى الظاهر مولاه علاء الدين على دمشق وعاد صاحبا حماه وحمص إلى بلديهما ، ومن هذا الوقت اعتبرت هذه البلاد داخلة في حوزة الملك الظاهر تقام له الخطبة فيها ويدعى له على منابرها [٣] .

أما عن ولاية حلب فإن قطز كان قد ولى عليها عند عودته إلى مصر من غزو التتار السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، غير أن السعيد سار في حلب سيرة معوجة ، كان من جرائها أن بغضه العسكر وكره الناس ولايته عليهم ، وعندما بلغه مسير التتار إلى البيرة [٤] في أواخر سنة ٦٥٨هـ جرد إليهم جماعة قليلة من الجند ؛ ولم يقبل نصيحة أحد في منع هذه الشرذمة القليلة من ملاقاة التتار أو العمل على زيادة عددهم لتقوى على مصادمة العدو وأصر على مسير تلك الفئة ، وسرعان ما أبادها التتار بالقرب

(١) أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢٠٨
(٢) المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٤٤ و ٤٤٥ و ٤٥١
(٣) أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢١٠
(٤) البيرة ، بلد قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية ، ياقوت : معجم البلدان .

من البيرة ، فازداد غيظ الأمراء لذلك وقبضوا على السعيد واستولوا على كل ماله الذى ابتزه من الأهالى ظلماً ؛ ويقدره المؤرخون بخمسين ألفاً من الدنانير [١] .

ولى الأمراء مكانه حسام الدين لاجين العزيزى وأعلموا الملك الظاهر بذلك فوافقهم واستقر حسام الدين بها . غير أن التتار ساروا إليها وملكوها وفر حسام الدين ومن معه إلى حماه ؛ وهناك حذروا الملك المنصور صاحبها من التتار فظن فى أول الأمر أن ذلك حيلة منهم للغدر به ؛ غير أنه لما تحقق من صدق قولهم خرج إليهم ولحق بهم وسار معهم إلى حمص — وكان التتار فى هذه الأثناء قد انقضوا على حماه — فاتفقت هذه الجموع المحتشدة بحمص فى المحرم سنة ٦٥٩ هـ على محاربة التتار ؛ فالتقوا بهم بظاهر حمص وقاتلوهم وتمت النصرة للسلمين [٢] وهزم التتار مع كثرة عددهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ؛ ورجع الملك المنصور إلى حماه ومعه أخوه الأفضل ثم سارا إلى دمشق واجتمعا هناك بالأشرف صاحب حمص وظل الجميع بدمشق حتى انتهت ثورة سنجر . أما حسام الدين لاجين فإنه ذهب إلى مصر وأقام بها واستقر مكانه فخر الدين الحمصى نائباً من قبل الملك الظاهر .

بعد أن استقر علاء الدين البندقدارى بدمشق كلفه الظاهر بالقبض على جماعة من المماليك الذين كان يتوهم منافستهم له فى الملك أمثال بهاء الدين بغدى الأشرفى وشمس الدين أقوش البرلى وغيرهما [٣] . وكان الأخير والياً على نابلس وغزة وبلاد الساحل من قبل المظفر قطز وقد انضم إلى علاء الدين

---

(١) أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ ؛ المفضل بن أبى الفضائل ، النهج السديد ص ٧٠ .

(٢) ذكر مفضل بن أبى الفاضل . النهج السديد ص ٧٥ ؛ أن هذه الموقعة كانت أعظم من موقعة عين جالوت لكثرة ما أصاب التتار من الخسائر فيها .

(٣) أبو الفدا . المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢٠٩ — ٢١٠

لمحاربة سنجر بدمشق . ولما قبض علاء الدين على بغدى اجتمع المماليك العزيزية والناصرية حول شمس الدين وفروا إلى دمشق ليلا ، ثم سار بهم إلى حمص وأراد حمل صاحبها على الإنضمام إليه ضد بيبرس فلم يجبه إلى ذلك ، فتركه وتوجه إلى حماه وراسل المنصور فى ذلك فأغلظ له فى الرد ؛ فمضى مغضباً نحو حلب وبها فخر الدين الحمصى الذى أرسله علاء الدين لاستطلاع أخبار التتار بالبيرة واحتال عليه فى المسير إلى الملك الظاهر لتأمينه وتركه بهذه الأطراف تحت طاعته ؛ فاغترفخر الدين بقوله وسار نحو الظاهر . ولم تمض مدة قليلة حتى انقض البرلى على حلب واستولى على مابها من الأموال وجمع حوله العرب والتركمان واستعد للقتال . وسار جيش مصر قاصداً الشام لمحاربته بقيادة جمال الدين المحمودى وعلم الظاهر بمسير فخر الدين إليه فوبخه على تركه حلب ورده مع الجيش وعفا عن سنجر الحلبي وسيره هو أيضاً لمحاربة البرلى ؛ فسار الجميع إلى حلب واستولوا عليها فهرب البرلى إلى البيرة . ولما لم يجد بيده غيرها أعلن ولاءه للملك الظاهر واستأذنه فى القدوم إلى مصر . ولما قدم إليه أكرم بيبرس وفادته ، ثم غادرها ثانياً إلى البيرة : ولم يلبث أن تغير عليه الملك الظاهر فقبض عليه سنة ٦٦١ هـ [١] .

وفى هذه الأثناء كان على مدينة الكرك الملك المغيث أحد أمراء الأيوبيين . وقد وصل إليه على أثر اكتساح التتار للبلاد الشرقية جماعة من شهرزور فاتخذهم جنداً له ووجههم للإغارة على الشوبك وما يليها من الولايات التى دخلت فى حوزة الظاهر بيبرس .

جاءت الأخبار إلى مصر بما فعله هؤلاء الأكراد ؛ فهم الظاهر بالذهاب إلى الكرك وعلم المغيث بذلك فأرسل إليه بطاعته وطلب الأمان للأكراد ؛ فأمنهم واستدعاهم إلى مصر فوافوها وقبلهم الظاهر وعفا عنهم [٢] . غير أن بيبرس لم يأمن بعد ذلك جانب المغيث — وكان على تخوف دائم من ثورته —

(١) أبو الفدا . المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢١٠ و ٢١١ و ٢١٤

(٢) ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٥ ص ٣٨٤

فغادر مصر فى ربيع الآخر سنة ٦٦١ هـ . ولما وصل إلى غزة وفدت عليه أم الملك المغيث شافعة فى ولدها وأخذ أمان السلطان له فأجاب طلبها الملك الظاهر وأذن لها فى العودة ثم استدعى المغيث فقدم إليه بعد تردد وتقابلا فى بيسان . غير أن الظاهر لم يرع للمغيث عهده له وتأمينه كما أنه تناسى استعطافه والعفو عنه فقبض عليه وبعثه إلى القاهرة مقيداً : فظل معتقلا بقلعة الجبل حتى قتل[1]

أرسل الملك الظاهر بعد اعتقال المغيث واليأمن قبله على الكرك، وأمن أهلها ورتب أمورها ، وأصبحت منذ ذلك الوقت تحت سلطانه وانتهى عهد الأيوبيين بها : ثم عاد بيبرس إلى مصر وبلغه عند عودته وفاة الأشرف بن شيركوه صاحب حمص — وكان ملكها وراثياً لآبائه من أيام الملك العادل نور الدين ولم تزل متوارثة فيهم إلى أن مات الأشراف سنة ٦٦١ هـ — وبموته آلت إلى سلطان مصر وانقرض منها ملك بنى أيوب[2] .

٢ — إحياء الخلافة العباسية

لما أمر هولاكو بالهجوم العام على بغداد فى ٣ يناير سنة ١٢٥٨م ، ودحر جيوش الخليفة المستعصم ولم يبق فى طريقه إلى أبواب بغداد مقاومة سلم الخليفة العباسى نفسه بعد أن وعده هولاكو بالأمان : ثم لم يلبث أن قتل[3] بعد أيام قلائل هو وولداه أبو العباس أحمد وأبو الفضائل عبد الرحمن[4] .

---

(١) المفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ١٠٧ — ١٠٨ ابن شاكر الكتبى ، عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ٢٢٠ و ٢٢١

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٥ ص ٣٨٥

(٣) تختلف الروايات فى كيفية قتل الخليفة المستعصم وفى هذا يقول ابن واصل ص ٣٨٥ ب : وأما الخليفة رحمه الله فإنهم قتلوه لكن لم يطلع أحد على قتله كيف كان . فقيل إنه خنق وقيل وضع فى عدل ورفس حتى مات وقيل غرق فى الدجلة والله أعلم بحقيقة ذلك .

(٤) Browne, A Literary History of Persia II. pp. 462-463

وبقتل هذا الخليفة خلت البلاد الإسلامية من الخلافة ، فظل منصبها شاغراً حتى اعتلى عرش مصر الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) .

أخذ بيبرس فى السنة التالية من توليته سلطنة مصر يعمل على إعادة الخلافة العباسية إلى مكانتها بعد أن قضى عليها هولاكو فى بغداد . وكان بيبرس يرمى من وراء ذلك إلى أن يقوى عرشه فى مصر ضد أحقاد نظرائه من المماليك ويجعل حكمه شرعياً فى البلاد . ويعزو السير وليم ميور[1] سعى بيبرس لإحياء الخلافة العباسية بمصر إلى خوفه من قيام الشيعة لإرجاع الدولة الفاطمية . وهذا الرأى بعيد على الصواب إذ أننا لا نجد مايؤيده فى المصادر العربية والإفرنجية ؛ فإنه على أثر المؤامرة التى دبرت سنة ١١٩٤ م لإرجاع الخلافة الفاطمية بمصر[2] لم نسمع عن أى محاولة أخرى لإعادة الفاطميين إلى حكم مصر . ولعل السير وليم ميور إعتقد أن طائفة الإسماعيلية التى كانت تقطن سورية فى ذلك الوقت والتى كانت على عداء مع بيبرس ربما تفكر فى إرجاع الخلافة الفاطمية : ولكن هذه الطائفة لم يكن لديها من القوة مايجعلها تعمل على تقويض سلطة الملك الظاهر بمصر ، كما أنه ليس لدينا من النصوص ما يجعلنا نعتقد أنهم فكروا فى إرجاع الخلافة للفاطميين ، ولم نسمع أنهم اشتركوا فى المؤامرات التى دبرها شيعة مصر لإعادة الخلافة الفاطمية .

على أن الملك الظاهر لم يكن أول من فكر فى إحياء الخلافة العباسية بل سبقه إلى التفكير فى ذلك الملك الناصر يوسف صاحب دمشق الذى ما كاد

---

(١) The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt pp. 14-15.

(٢) إشترك فى هذه المؤامرة مع بقايا الفاطميين شيخ الاسماعيلية وملك صقلية وعمورى ملك بيت المقدس وتمكن صلاح الدين من القضاء عليها .

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages pp. 197-198.

يعلم من الأمير عيسى بن مهنا أن أميراً عباسياً [١] قدم إلى دمشق حتى أرسل يستدعيه إليه ؛ غير أنه فوجىء بقدوم التتار فعاد الأمير ثانية إلى عيسى بن مهنا. وعندما قدم الملك المظفر قطز إلى دمشق على أثر انتصاره على التتار فى موقعة عين جالوت أخبره الأمير عيسى بن مهنا بقدوم ذلك الأمير العباسى . فقال له « إذا رجعنا إلى مصر أنفذه إلينا لنعيده إن شاء الله » [٢]. ونستفيد من ذلك أن قطز كان يرمى إلى تولية هذا الأمير خليفة للمسلمين ؛ غير أنه لم يعمر طويلا حتى ينفذ هذه الفكرة [٣] .

مما تقدم يتضح لنا كيف أن الأمراء المسلمين فى ذلك الوقت كانوا يميلون إلى إحياء الخلافة العباسية ؛ وظلت هذه الرغبة ملحوظة حتى تولى بيبرس سلطنة مصر فشرع فى تنفيذ ما فكر فيه هؤلاء الأمراء المسلمون لكى يعزز زعامته للإسلام . وقد تحققت آماله فى إحياء الخلافة عندما ورد إليه كتاب من الأمير علاء الدين طيبرس والأمير علاء الدين البندقدارى يتضمن أن رجلا وصل إلى دمشق يدعى أنه أحمد بن الإمام الظاهر ابن الإمام الناصر العباسى ومعه جماعة من عرب خفاجة : فكتب إليهما السلطان يوصيهما به خيراً ويكلفهما بأن يعينا من يقوم فى خدمته ويرسلا معه حجاباً إلى مصر [٤]

---

(١) هذا الأمير هو أبو العباس أحمد بن أبى على الحسن القبى بن على بن أبى بكر بن الخليفة المسترشد ابن المستظهر بالله . وكان قد اختفى أثناء هجوم التتار على بغداد ثم تمكن من الفرار وأقام عند حسين بن فلاح أمير بنى خفاجة ثم ذهب إلى دمشق وأقام عند الأمير عيسى بن مهنا : السيوطى . تاريخ الخلفاء ص ٣١٧ — ٣١٨

(٢) مفضل بن أبى الفضائل . النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ٩٣

(٣) ذكر السيوطى . تاريخ الخلفاء ص ٣١٨ ، أن الملك المظفر قطز بايع الأمير أبا العباس أحمد بدمشق وزاد على ذلك فقال إن هذا الأمير سار فى جماعة من أمراء العرب ففتح عانة والحديثة وهيت والأنبار وانتصر على التتار ثم كاتبه علاء الدين طيبرس نائب دمشق ليذهب إلى الملك الظاهر غير أنه امتنع عن الذهاب إلى مصر لما علم أن أميراً عباسياً آخر قدم إليها ورجع الى حلب فبايعه صاحبها شمس الدين البرلى . وسنرى فيما بعد أن هذا الأمير هو الذى استدعاه بيبرس على أثر مقتل الخليفة المستنصر بالله .

(٤) النويرى . نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ٢٨ .

وأعد العدة لاستقباله . وعندما علم بمجيئه طار إلى لقائه وخرج معه الوزير بهاء الدين بن حنا وقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز والأمراء والعساكر ، واليهود يحملون التوراة والنصارى يحملون الإنجيل وساروا جميعاً إلى المطرية لمقابلته . وحين وقع نظر الملك الظاهر عليه ترجل وعانقه وركب الخليفة وهو لابس شعار بنى العباس ومعه السلطان يتبعهما الجيش حتى وصل إلى قلعة الجبل [١] . وهنا نرى من بيبرس ظاهرة تدل على مبلغ احترامه للخليفة وتقديسه لمن يهيأ لهذا المركز ، إذ أبى حين وصوله إلى القلعة أن يتقدم الإمام أحمد فى الدخول ، ولم يشأ بعد أن استقرا فى مكانهما أن يجلس على مرتبة أو كرسى معه .

لم يقتصر الظاهر على هذا بل عقد مجلساً فى قاعة الأعمدة دعا إليه القضاة والعلماء والأمراء وسائر أرباب الدولة ليشهدوا بإثبات نسب هذا الإمام [٢] ، وحضر هذا الاجتماع شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، كما شهده العربان الذين قدموا إلى مصر مع الإمام أحمد . ولما انتظم عقد المجلس جلس الملك الظاهر بين يدى هذا الإمام العباسى واستدعى العربان الذين قدموا معه من بغـــداد ، فأقروا جميعاً بين يدى قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز بأن الإمام أحمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله بن الخليفة الناصر لدين الله المتصل النسب بالعباس بن عبد المطلب ، وأقر ذلك أيضاً بعض القضاة والفقهاء ، فقبل قاضى القضاة شهاداتهم وحكم بصحة نسبه وبايعه بالخلافة ثم قام بعد ذلك الملك الظاهر وبايعه « على كتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والجهاد فى سبيل الله وأخذ أموال الله بحقها وصرفها فى

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفـة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٧ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثانى ص ١٨٧ ب ؛ Sir William Muir, The Caliphate p. 593.

(٢) كان لفظ الامام من ألقاب الخلفاء أنفسهم وقد يطلق أحياناً على كبار العلماء . القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الانشا ج ٦ ص ٩ .

مستحقها[١]. وكذا بايعه القضاة ولقبوه بالمستنصر بالله، ثم أرسل الملك الظاهر لأخذ البيعة له من الناس على اختلاف طبقاتهم وتم ذلك ونقشت السكة فى مصر باسميهما، كما أمر بالدعاء للخليفة قبل الدعاء له فى خطبة الجمعة. ولم يكتف بذلك بل دعاه ليخطب ويصلى بالناس صلاة الجمعة بجامع القلعة؛ فاجتمع القضاة والعلماء وسائر الأمراء بالجامع وخطب الإمام خطبة بليغة أثنى فيها على فضل الملك الظاهر الذى رد الخلافة لبنى العباس[٢].

رأينا كيف أن الملك الظاهر كان حريصاً عند شروعه فى مبايعة الأمير العباسى الذى قدم إليه، فلم يبايعه بالخلافة إلا بعد أن تأكد من صحة نسبه إلى بنى العباس بخلاف الملك المظفر قطز الذى ما كاد يعلم أن أميراً عباسياً وصل إلى دمشق حتى سارع إليه وبايعه بالخلافة.

وعلى الرغم من ذلك فإنه يفهم من كلام بعض المؤرخين أنهم يشكون فى نسبة هذا الخليفة إلى العباسيين. ويتضح لنا ذلك من عبارة أبى الفدا[٣] فى هذا الصدد ونصها: «وفى هذه السنة (٦٥٩ هـ) قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسود اللون إسمه أحمد زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله ابن الإمام الناصر» ثم يقول فى موضع آخر عند كلامه على سفر الخليفة إلى بلاد الشام لمحاربة التتار «وبرز الملك الظاهر والخليفة الأسود... وتوجها إلى دمشق» وكذلك نجد مفضل بن أبى الفضائل[٤] يسمى هذا الخليفة باسم المستنصر بالله الأسود.

ولعل الشك الذى يبدو فى عبارة هذين المؤرخين من صحة نسب هذا

---

(١) النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٨ — ١٩ المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٩ — ٤٥٠.

(٢) ابن اياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج ١ ص ١٠١

(٣) المختصر فى أخبار البشر: ج ٣ ص ٢١٣

(٤) النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ١٠٥

الإمام إلى العباسيين إنما تطرق إليهما من سواد لونه ، ولكن سواد اللون لا يمنع صحة النسب ، فقد كان بعض الخلفاء العباسيين كالمأمون مثلا أسمر اللون ويستدل على ذلك بما رواه لنا ابن إياس[١] حيث قال إن أم الخليفة المستنصر كانت أم ولد حبشية.

أما النويرى[٢] والمقريزى[٣] وأبو المحاسن[٤] فلم يظهر من كلامهم عن هذا الخليفة مايشعرنا بأنهم كانوا يشكون فى صحة نسبه ، بل يثبت لنا الأخير أن هذا الخيفة ينتمى حقيقة إلى بنى العباس ويذكر سلسلة نسبه إلى عبد الله ابن العباس الهاشمى.

وتنفيذاً لرغبة الملك الظاهر فى تقوية عرشه ضد مناوئيه من أمراء المماليك وإحاطة مملكته بسياج من الهيبة والاحترام رأى أن يعقد اجتماعا يتلى فيه تفويض الخليفة العباسى له بالسلطة . فخرج فى ٤ شعبان سنة ٦٥٩هـ إلى المطرية وضرب هناك خيمة كبيرة وجلس على كرسى والأمراء بين يديه . ولما اكتمل عقد الاجتماع صعد القاضى فخر الدين بن لقمان — صاحب ديوان الإنشاء — المنبر وقرأ على الأمراء تقليد الخليفة المستنصر بالله للملك الظاهر.

وقد أورد لنا النويرى[٥] ، والمقريزى[٦] ، وأبو المحاسن[٧] صورة هذا التفويض نقتطف منه ما يلى :

« بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذى اصطفى الإسلام بملابس

---

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ١ ص ١٠

(٢) نهاية الأرب فى فنون الأدب ٢٨ القسم الأول ص ١٨ — ٢٠

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٥١

(٤) النجوم الزاهرة ملوك مصر والقاهرة ج ٣ ص ١٨٨ ا

(٥) نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ٢١ — ٢٨

(٦) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٥٣ — ٤٥٧

(٧) النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثانى ص ١٨٨ ا — ١٨٨ ب .

الشرف وأظهر بهجة درره وكانت خافية بما استحكم عليها من الصدف وشيد ما وهى من علائه حتى أنسى ذكر ماسلف وقبض انصره ملوكا اتفق على طاعتهم من اختلف . . . وبعد ، فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره وأحقهم أن يصبح القلم راكعاً وساجداً فى تسطير مناقبه وبره من سعى فأضحى بسعيه الحميد متقدماً . . . وما بدت به من المكرمات إلا كان لها زنداً ومعصما ولا استباح بسيفه حمى وغى إلا أضرمه ناراً وأجراه دماً . ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالى المولوى السلطانى الملكى الظاهرى الركنى شرفه الله وأعلاه ، ذكره الديوان العزيز النبوى الأمامى المستنصرى أعز الله سلطانه تنويها بشريف قدره واعترافاً بصنعه الذى تنفد العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره . وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنواً وعطفاً . . . وأبدى من الاهتمام بأمر الشريعة والبيعة أمراً لو رامه غيره لامتنع عليه . . وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ويعترف أنه لولا اهتمامك لا تسع الخرق على الراقع . وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجـــدد من الفتوحات غوراً ونجداً ، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكارم فرداً ، ولا جعل منها بلداً من البلاد ولا حصناً من الحصون يستثنى ، ولا جهة من الجهات تعد فى الأعلى ولا فى الأدنى . فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لها حاملا . . . وأبسط يدك بالإحسان والعدل . . . وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى نواب وحكام وأصحاب رأى من أصحاب السيوف والأقلام . فإذا استعنت بأحد منهم فى أمورك فنقب عليه تنقيباً . . . وأمرهم بالأناة فى الأمور والرفق ومخالفة الهوى إذا ظهرت أدلة الحق وأن يعاملوا الضعفاء فى حوائجهم بالثغر الباسم والوجه الطلق . . . ومما تؤمرون به أن يمحى ما أحدث من سيء السنن وجدد من المظالم التى هى من أعظم المحن . . وحقيق بالمقام الشريف

المولوى السلطانى الملك الظاهرى الركنى أن تكون ظلامات الأنام مردودة بعدله . . ومما يجب أيضاً تقديم ذكره أمر الجهاد الذى أضحى على الأمة فرضاً . . وبك يرجى أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه فى الأيام الأول . فأيقظ نصرة الإسلام جفناً ماكان غافياً ولا هاجعاً وكن فى مجاهدة أعداء الله إماماً متبوعاً لا تابعاً وأيد كلمة التوحيد فما تجد فى تأييدها إلا مطيعاً سامعاً . ولا تخل الثغور من اهتمام بأمرها . . وشيد منها كل ما غادره العدو منهدماً . . أولاها بالاهتمام ما كان البحر له مجاوراً .. وكذلك أمر الأسطول .. إلى أن يقول : والله يمدك بأسباب نصره ويوزعك شكر نعمه فإن النعمة ستتم بشكرها .

فلما فرغ من قراءته أحضر للسلطان الملك الظاهر خلعة السلطنة وهى (جبة بنفسجية اللون وعمامة سوداء وطوق من ذهب وسيف) فلبسها وسار الموكب من باب النصر فى طريق مفروش بالبسط إلى القلعة وتقدم السلطان الموكب وتلاه الخليفة فالصاحب بهاء الدين بن حنا يحمل التقليد على رأسه وتبعهم سائر الناس على الأقدام فكان منظراً لا يحيط به الوصف [1] .

شرع الملك الظاهر بعد ذلك يعد العدة لإعادة الخليفة إلى كرسيه ببغداد فرتب له بعض الأمراء والعساكر وهيأ له كل سبل الراحة وخرج السلطان ومعه الخليفة وأولاد صاحب الموصل [2] . ولما وصلوا إلى دمشق قيل للملك الظاهر إن تأسيس خلافة قوية الأركان فى بغداد قد تكون خطراً عليه ؛ فأوغر ذلك صدره على الخليفة وتركه هناك يخترق الصحراء برفقة قوة من

---

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٥٧

Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt pp. 15-16

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٦٢

الأعراب والترك (١) . فتابع الخليفة السير حتى وصل إلى الرحبة (٢) . وهناك فارقه أولاد صاحب الموصل وأبوا السير معه وقالوا « مامعنا مرسوم بذلك وأرسلوا معه ستين رجلا من مماليك والدهم ، ثم رحل الخليفة من الرحبة بعد أن أقام بها ثلاثة أيام إلى مشهد على ومنها إلى عانة . وهناك تقابل بالأمير أبى العباس أحمد (٣) ، وكان معه سبعمائة فارس من التركمان تمكن الخليفة من استمالتهم إليه واضطر أخيراً هذا الأمير إلى الانضمام إلى الخليفة بعد أن أمنه ، ثم رحل إلى الحديثة ففتحها من غير مقاومة ، وقصد بعد ذلك إلى هيت فأغلق أهلها الباب دونه ، فظل محاصراً لها حتى تمكن من فتحها ونهب أموال من بها من اليهود والنصارى (٤) .

ولما علم التتار بذلك أدركوا أن الخليفة ما جاء إلا للاستيلاء على كرسى الخلافة وأخذ البلاد منهم فخرجوا لقتاله بقيادة قرابغا ، ووقعت بين الفريقين معركة دموية انتهت بانتصار التتار وهزيمة الخليفة وجيشه واستشهاده فى تلك الموقعة سنة ٦٦٠ هـ . ولم يفلت من جيشه سوى بعض الأمراء ومن بينهم الأمير أبى العباس أحمد الذى قدم إلى مصر فيما بعد وتلقب بالحاكم بأمر الله (٥) .

ولما بلغ الظاهر خبر الهزيمة أظهر لذلك أشد الأسف لا على قتل الخليفة وهزيمة جيشه فقط ، بل على ما أنفقه فى سبيل ذلك أيضاً من الأموال الكثيرة

---

(١) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 16.

(٢) تقع على شاطىء الفرات جنوب قرقيسيا وتبعد عن بغداد مائة فرسخ . ياقوت : معجم البلدان .

(٣) كان صاحب حلب شمس الدين البرلى قد بايع هذا الأمير بالخلافة عندما امتنع عن الذهاب إلى مصر لما علم أن المستنصر قدم إليها ، ولقبه بالحاكم بأمر الله ونقش اسمه على الدراهم ثم جهزه على رأس جيش صغير فذهب إلى عانة حيث قابل المستنصر بالله ودخل تحت طاعته كما رأينا . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٧ — ٣١٨

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ القسم الثانى ص ١٨٩ — ١٩٠

(٥) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٦٧

والمعدات التى تفوق قيمتها وصف الواصفين (١) . كما أنه رأى أن سياسته فى إحياء الخلافة العباسية خاب فألها ففكر فى الأمر حتى انجلى رأيه عن إقامة خليفة آخر تكون له الزعامة الدينية على البلاد التى تحت سيطرته ليستقر له الأمر فيها ، ومن هنا نجد أنه يبعث فى طلب أمير عباسى آخر وهو أبو العباس أحمد(٢) . ولما قدم عليه سنة ٦٦١ هـ احتفل بمبايعته بالإيوان الكبير بقلعة الجبل بحضور القضاة والأمراء وأرباب الدولة ، ثم قرىء نسبه بعدما ثبتت صحته لقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز الذى بايعه على أثر ذلك (٣) ، ثم تلاه السلطان فبايعه « على العمل بكتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجهاد أعداء الله وأخذ أموال الله بحقها وصرفها فى مستحقها والوفاء بالعهود وإقامة الحدود وما يجب على الأئمة فعله فى أمور الدين » . فلما تمت البيعة أقبل الخليفة على السلطان وقلده « أمور البلاد والعباد وجعل إليه تدبير الخلق وأقامه قسيمه فى القيام بالحق وفوض إليه سائر الأمور وعدق به صلاح الجمهور » . ثم أخذ الناس على

---

(١) ذكر المقريزى : السلوك ج ٢ القسم الثانى ص ٤٦٧ ؛ أن مقدار ما أنفقه الملك الظاهر على الخليفة وأولاد صاحب الموصل بلغت نحو مليون دينار نقداً و ٦٠٠٠٠ دينار عيناً . أما السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٣١٧) فقال أنه صرف نحو مليون دينار ذهباً وستة وستين ألف درهم .

(٢) ذكر أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ص ٢١٥ إن هذا الأمير كان قد قدم إلى مصر سنة ٦٥٩ هـ وأنه بويع بالخلافة فى أواخر سنة ٦٦١ هـ . أما المفضل : النهج السديد ص ٩٢ ؛ المقريزى : السلوك ص ٤٦٨ و ٤٧٧ فيفهم من كلامهما إنه قدم إلى مصر سنة ٦٦٠ هـ ، وأن الملك الظاهر احتفل بلقائه وأنزله فى البرج الكبير بقلعة الجبل ، ثم بايعه بالخلافة فى أوائل سنة ٦٦١ هـ . على أن الرواية التى لا يشوبها غموض وتتفق مع مجرى الحوادث هى التى ذكرها السيوطى : تاريخ الخلفاء ص٣١٨ ؛ وهى أن هذا الأمير العباسى قدم إلى عيسى بن مهنا على أثر قتل الخليفة المستنصر بالله وانهزامه عند هيت على يد التتار ، فكاتب الأمير عيسى الملك الظاهر يخبره بقدوم الأمير أبى العباس أحمد ، فأرسل يستدعيه إليه . ولما قدم إلى مصر أكرمه الملك الظاهر وبايعه بالخلافة سنة ٦٦١ هـ .

(٣) ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ٢٣٠

اختلاف طبقاتهم فى مبايعته ولقب بالحاكم بأمر الله أمير المؤمنين [١]؛ وبذلك أعيدت الخلافة العباسية ثانية إلى مصر، غير أنه فى هذه المرة لم يكن هناك تفكير فى الاستيلاء على بغداد كما أن الخلفاء العباسيين بمصر أصبحت سلطتهم منذ ذلك الوقت مقصورة على الأمور الدينية [٢].

على أن مسألة الخلافة العباسية لم تكن قد انتهت تماماً بمبايعة الحاكم بأمر الله بالخلافة سنة ٦٦١ هـ، إذ لم تمض ثلاث سنوات على هذا الحادث حتى نرى بيبرس يرسل إلى مصر — على أثر وصوله إلى دمشق بعد استيلائه على قلعة صفد — رجلين إدعى أحدهما أنه مبارك بن الإمام المستعصم أما الثانى فقال إنه من أولاد الخلفاء [٣]. ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل وفد إليها فى ذلك الوقت أيضاً على بن الخليفة المستعصم [٤]. ويتضح من هذا أن أبناء البيت العباسى كانوا يعتبرون عاصمة الديار المصرية ملجأ أميناً لإيوائهم. غير أننا لاندرى ما الذى دفع الملك الظاهر إلى إرسال هذين الرجلين إلى مصر مع أنه قد بايع قبل ذلك أميراً عباسياً بالخلافة. لعل السبب فى ذلك يرجع إلى رغبة بيبرس الصادقة فى استمرار الخلافة العباسية بمصر. ويتبين لنا ذلك من عبارة النويرى [٥] فى هذا الصدد. وهاك نصها «وفى شهر رمضان من سنة ٦٦٤هـ، وصل إلى دمشق ولد الخليفة المستعصم بالله المسمى بالمبارك الذى كان عند هولاكو وصحبته جماعة من أمراء العربان فأنزله الأمير جمال الدين النجيبى فى أعز مكان. فلما وصل السلطان إلى دمشق سير إليه جلال الدين بن الدوادار والطواشى مختار فما عرفاه وظهر أنه بخلاف ما ادعاه

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٧٧ — ٤٧٩
(٢) Stanley Lane-Poole, N. I p. 265.
(٣) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٢٩
(٤) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٥٤
(٥) نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٢٩

فسير إلى مصر تحت الاحتياط » . على أننا نرى أن هناك سبباً آخر دفع بيبرس إلى ذلك وهو رغبته فى إضعاف نفوذ الحاكم بأمر الله فيهدده كلما حدثته نفسه بالتدخل فى شئون الدولة بخلعه ومبايعة خليفة آخر . وقد أخذ بيبرس لنفسه الحيطة حتى لا يجعله يشغل المكانة التى كان يتمتع بها سلفه فجعله شخصاً عادياً مراقباً سجيناً فى القلعة [1] .

ولاشك أن الرغبة الأكيدة التى جالت فى نفس الظاهر بيبرس والتى أراد أن يحققها من وراء عقد الخلافة الإسلامية لرجل من العباسيين رغبة سياسية أكثر منها دينية وبعبارة أدق إن الظاهر كان يريد امتداد ملكه واتساع سلطانه بمساعدة الخليفة له باعتباره حامى الدين ، فإن فكرة الزعامة الدينية تعمل فى الرءوس مالا تعمله أساليب السياسة أياً كان نوعها ومالا تناله أسنة السيوف مهما أراقت من دماء . ولم يكن غرض بيبرس من تولية ذلك الخليفة المقتول إعادة ملك العباسيين واسترداد ما كان لهم من عز وجاه ، فإن ذلك كما يقرض دعائم ملك التتار الذين استولوا على بغداد يهدم سلطة الظاهر فى مصر والشام .

وصفوة القول أن الأمم الإسلامية كانت فى هذا الوقت لا تزال متعلقة بأهداب الخلافة ناظرة إلى الخليفة نظرة إكبار وإجلال ، كما كانت لا تزال تنظر إلى من يحقق فكرة إقامة الخليفة بنفس العين التى كانوا ينظرون بها إلى الخليفة نفسه . وتتجلى لنا رغبة الشعب العامة فى إبراز فكرة الخلافة فيما يرويه ابن إياس [2] عن بعض الشعراء حين بويع الخليفة بمصر :

يا أســد الترك ياركنهم ويا آخذ الثأر بعد المخافة
كسرت الطغاة جبرت العفاة قطعت الفرات وصلت الخلافة

---

(١) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 16

(٢) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ١ ص ١٠٣

ولعلنا نرى من خضوع بيبرس للخليفة فى المجلس الحافل بعظماء الرجال وكبار الدولة مثلا ضربه للحاضرين وللشعب بوجوب احترام وتقديس هذا الخليفة ولنفسه هو باعتباره السلطان عليهم القائم على شئون الدولة والمالك لزمام الحكم فيها، قد أبت نفسه أن ترتفع فى المجلس على منضدة أو أريكة فى حضرة أمير المؤمنين ليريهم أن هذه المنزلة لم يسم إليها إلا الخليفة. فكان ذلك أكبر عامل بعث فى نفوس الشعب الخضوع والتقديس لتلك الشخصية. هذا إلى ما تنطوى عليه نفوسهم من إكبار فكرة الخلافة.

ومما هو جدير بالذكر أنه لما استقر ملك بيبرس فى البلاد المصرية والشامية أصبح فى غنية عن ظهور الخليفة فى المجتمعات العامة، كما لم يصبح فى حاجة إلى إسماع كلمته للشعب. لذلك نراه يزج به فى أعماق دار[1] لا يصل إليه أحد من خواص الدولة ورجالات الشعب. ولعل السر فى إخفائه أنه خاف على نفسه من طول اتصال الشعب به حتى لا يتألب عليه ويقيم مقامه الخليفة فتنتقل إلى يده السلطة الزمنية أيضاً. ومن ذلك يتضح لنا أن الظاهر لم يرم بعمله هذا إلى إحياء الخلافة الإسلامية فحسب، وإنما فعل ذلك لأسباب سياسية أيضاً.

---

(١) ذكر أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثانى ص ١١٩٠، أن الملك الظاهر أنزل الخليفة الحاكم فى مناظر الكبش التى أنشأها أحمد بن طولون وزاد على ذلك ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج ١ ص ١٠٤ فقال إن السلطان رتب لهذا الخليفة ما يكفيه كل يوم هو وحاشيته كما أمره أن يصعد القلعة فى أول كل شهر ليقدم له فروض التهنئة.

الباب الثالث

سياسة مصر الخارجية فى عهد بيبرس

١ - موقف مصر من الصليبيين

٢- سياسة مصر إزاء المغول

٣- علاقة مصر بارمينية الصغرى

٤- العلاقات مع ملوك اوربا

٥- اتساع نفوذ مصر فى بلاد النوبة

٦- استعادة مكانة مصر فى بلاد الحجاز

١ – موقف مصر من الصليبيين

رأى بيبرس بعد أن وطد سلطته فى مصر أن يعمل على إحياء الإمبراطورية الإسلامية ، لذلك كان من أهم أركان سياسته مناضلة الصليبيين الذين كانوا لا يزالون مقيمين على سواحل الشام . وعلى الرغم من أن وسائل القضاء عليهم قد توفرت منذ انهزامهم فى موقعة المنصورة سنة ١٢٥٠ م إلا أنه لم يشرع فى القضاء على دولتهم ببلاد الشام إلا منذ تولى بيبرس سلطنة مصر سنة ١٢٦٠م . ويرجع ذلك إلى انشغال سلاطين المماليك بالعمل على إيقاف خطر المغول وضم الشام إلى مصر بعد أن انفصلت عنها على أثر اختيار أمراء دمشق [1] الناصر داود الأيوبى سلطاناً عليهم [2] ، فكان لا بد من التغلب على تلك العثرات قبل أن يستطيع سلاطين المماليك مواجهة الصليبيين مواجهة تامة .

---

(١) كان لاستقلال دمشق وانفصالها عن الجبهة الاسلامية فى أيام الحروب الصليبية الأولى أثر كبير فى تقدم الصليبيين . إذ حالفت مملكة دمشق الدولة الصليبية ببيت المقدس سنة ١١٣٩م ضد أتابك الموصل (Stevenson p. 143) . فلما صارت دمشق والموصل بيد نور الدين وضح الخطر على مملكة الصليبيين (Stevenson p. 173) ثم لما انفصلت دمشق مرة أخرى بتوزيع القوات الاسلامية على أثر إقامة صلاح الدين بمصر ونور الدين بالشام ضعفت المقاومة الاسلامية وقل الخطر الاسلامى إلى حد ما ثم زاد وبلغ النهاية العظمى لما أصبحت دمشق والقاهرة والموصل بيد صلاح الدين (Stevenson p. 230) . غير أنه لما انقسمت مملكته على أثر وفاته بين أهل بيته ضعفت الجبهة الاسلامية أمام الصليبيين وشواهد ذلك واضحة ، فالهدنات التى عقدها العادل مع الصليبيين كان من أسبابها انشغال الأيوبيين بأمورهم والمعاهدة التى عقدها الكامل مع فردريك الثانى كان من أسبابها انشغاله بأخيه المعظم صاحب دمشق
Stenley Lane-Poole, pp. 213, 215, 217, 225-226.

من هذا كله نرى أهمية انضواء الشام ومصر تحت سلطان واحد فى مصير الصليبيين .

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٢ ص ١٨٣

وقد نجح المماليك فى أيام الملك المظفر قطز فى إزالة العقبة الثانية وذلك بعد إجلائهم المغول عن دمشق على أثر هزيمتهم على يد بيبرس فى موقعة عين جالوت التى مهدت الطريق لانضواء الشام ومصر تحت سلطان واحد سنة ١٢٦٠م [١] ؛ وبذلك تهيأت الأسباب التى تنذر بالخطر على دولة الصليبيين بالشام . أما عن المغول الذين أسسوا دولة لهم بالعراق ، فإنه على الرغم من تطلع المسيحيين إلى هذه القوة الناشئة لتساعدهم فى حروبهم ضد المسلمين وتضمن لهم امتلاك الأراضى المقدسة ، تمكن بيبرس بفضل انتصاراته عليهم فى بلاد الشام وتحالفه مع بركة خان سلطان مغول القفجاق من أن يجعل أمد الحلف بينهم وبين ايلخانات فارس قصيراً . وكان من أثر ذلك أن انصرف مغول فارس إلى الاهتمام بمصالحهم الشخصية ، كما أنه قد أساء إلى سمعة المسيحيين فى غرب آسيا ما ارتكبه إخوانهم فى الدين فى دمشق وغيرها من مدن الشام من الفظائع فى تلك المدة القصيرة التى أقاموا بين ظهرانيهم مغول فارس حيث أولوهم عطفهم ورعايتهم [٢] .

وقد عمل بيبرس على مناوأة الإمارات اللاتينية فى الشرق (من سنة ١٢٦١ — ١٢٧١م) . ولم تمض سنة من تلك السنوات العشر بدون حملة يرسلها بيبرس إلى تلك الإمارات . فبدأ حملاته بغزوات صغيرة على أنطاكية — التى أعلنت عطفها على المغول — وقيليقيا وجهات عكا [٣] . وكانت خاتمة أمره معهم أن ضيق عليهم الحصار واستخلص البلاد منهم حتى لم يبق لهم إلا النذر اليسير مما كان بأيديهم .

وسنعرض لحروبه معهم والأسباب التى كانت تحمل الظاهر على غزوهم

(١) Stevenson : The Crusaders in the East p. 334.

(٢) Sir Thomas Arnold : The Preaching of Islam p. 223.

(٣) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 267.

عدة مرات فى مواقع متفرقة والتى جعلت منازلتـــه لهم تستمر مدة عشر سنوات تقريباً وفى كل موقعة ينتزع بلداً أو أكثر إلى أن ألجأهم إلى الانضواء فى صقع لا يكاد يذكر بجانب ما كان لهم أيام صلاح الدين ومن خلفه من السلاطين إلى عهده . نعم كان بيبرس فى غزواته ضد الصليبيين ينتصر عليهم ويستولى على مواطنهم وينتقص مدنهم من أطرافها وإن كان قد لقى كثيراً من المشقات والمتاعب من جراء نيل مقصده وتتميم رغبانه ؛ ومن ثم لم يهزم أمامهم أو يمتنع عليه أحد حصونهم .

على أن بيبرس لم يشرع فى تنفيذ سياسته إزاء الصليبيين إلا بعد أن عقد عدة محالفات مع الدول المحيطة بمملكته ، فتحالف مع بركة خان سلطان مغول القفجاق ضد خانات فارس ، وتبودلت بينهما البعوث بين سنة ١٢٦١ — ١٢٦٣م كما عقد محالفة دفاعية مع ميخائيل باليولوجس (Michael Palaeologus) إمبراطور الدولة البيزنطية . ولم يكتف بذلك بل وسع دائرة محالفاته فأرسل بعثاً إلى منفـــرد Manfred ملك صقلية وتسكانيا وتحالف مع سلطان السلاجقة الروم [١] .

وقد بدأت مناوأة بيبرس للامارات اللاتينية بإغارة بعض أمرائه على بلاد أنطاكية وانتصارهم على الفرنجة سنة ١٢٦٠ م . وكان من أثر ذلك أن قدمت رسلهم إليه تطلب الصلح فأجابهم إلى طلبهم [٢] . غير أن الفرنجة لم ينفذوا ما وعدوا به من إطلاق سراح الأسرى المسلمين ، فعنفهم لقسوة قلوبهم على إخوانهم فى الدين وأمر باستخدام أسرى المسيحيين فى بناء حصون دمشق .

ولما هدأ روع بيبرس من جهة الملك المغيث رأى أن فى استطاعته أن

---

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages pp. 265-266

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٦٣ — ٤٦٤

يزحف بكل جنوده على الصليبيين . على أن السبب المباشر فى إغارته عليهم يرجع إلى نقضهم العهود إذا امتنعوا عن تسليم بعض المعاقل ، فقام إظهاراً لسخطه وغادر مصر إلى بلاد الشام سنة ١٢٦٣م [١] حتى إذا توسطها جاءته رسل الصليبيين بكتب يتجاهلون فيها وصول السلطان إليهم ؛ فكتب إليهم كتاباً قال فيه « إن من يتولى امرأ فعليه باليقظة ومن خفى عليه خروج هذه العساكر وجهل ما عليه الوحوش فى الفلاة والحيتان فى المياه من كثرتها التى لعل بيوتكم ما فيها موضع إلا ويكنس منه التراب الذى أثارته خيل هذه العساكر . ولعل وقع سنابكها قد أصم أسماع من وراء البحر من الفرنج ومن فى موقان [٢] من التتار . فإذا كانت هذه العساكر تصل جميعها إلى أبواب بيوتكم ولا تدرون فأى شىء تعملون » . ولما رأى الظاهر مراوغتهم وأنهم أصبحوا يظهرون التمسك بأهداب الهدنة بعد أن كانوا يكاتبونه بندمهم عليها أحضر رؤساءهم وقال لهم « ما تقولون » ؟ . قالوا : « نتمسك بالهدنة التى بيننا » . فأجابهم بقوله « لم لا كان هذا قبل حضورنا إلى هذا المكان وإنفاق الأموال التى لو جرت لكانت بحاراً، ونحن لما حضرنا إلى هاهنا ما آذينا لكم زرعاً ولا غيره . وأنتم منعتم الجلب والميرة عن العسكر وسيرتم إلينا بدمشق نسخة يمين حلفنا عليها وسيرنا نسخة يمين لم تحلفوا عليها وسيرنا الأسارى إلى نابلس ثم إلى دمشق ، وما سيرتم أنتم أحداً وسيرنا رسولا يعلمكم بوصول الأسرى فلم تبعثوا أحداً ولم ترحموا أهل ملتكم الأسرى وقد وصلوا إلى أبواب بيوتكم . كل ذلك حتى لا تبطل أشغالكم من أسرى المسلمين عندكم .. ثم إنا سيرنا رسلا إلى [بلاد السلاجقة] الروم وكتبنا إليكم بتسفيرهم فى البحر فأشرتم عليهم بالسفر إلى قبرص ؛ فأخذوا وضيق عليهم وأتلف أحدهم .

---

(١) Sir William Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 19.

(٢) إحدى أقسام أذربيجان . ياقوت : معجم البلدان .

هذا مع إحساننا إلى رسلكم وجرت عادة الرسل أنها لا تؤذى . وما زالت الحرب قائمة والرسل مترددة . فإن كان هذا بغير رضاكم فإنه نقص فى حرمتكم ». ثم ذكرهم بما كان من عفو الملك الصالح نجم الدين ايوب عنهم حين خرجوا عليه مع عمه الصالح إسماعيل بن العادل وأخذهم مقابل ذلك مدينتى صفد والشقيف وأنهم غدروا وناصروا لويس التاسع وصحبوه إلى مصر . . إلى أن قال « وبالجملة أنتم أخذتم هذه البلاد من الملك الصالح إسماعيل لإعانة مملكة الشام وغيرها . . وما أنا محتاج إلى نصرتكم ولا إلى نجدتهم فردوا ما أخذتموه من البلاد وفكوا أسرى المسلمين جميعهم فإنى لا أقبل غير ذلك ». فقالوا : « نحن ما ننقض الهدنة وإنما نطلب مراحم السلطان فى استدامتها ونزيل شكوى النواب ونخرج من جميع الدعاوى ونفك الأسرى . . . » فلم يقبل السلطان منهم ذلك وأمر بإخراج رسل الفرنجة ووجه الأمير علاء الدين طيبرس إلى كنيسة الناصرة ؛ فسار إليها وهدمها و لم يلق من الفرنجة أى مقاومة [1] .

لم يكتف بيبرس بما أحدثه جيشه بكنيسة الناصرة ؛ بل جرد جيشاً إلى مدينة عكاء فاقتحم أبوابها ، ثم سار بنفسه إليها وحاصرها من جهة البر ٦٦١هـ (١٢٦٣م) . وكان الفرنجة قد حفروا خندقاً حول تل الفضول بالقرب من عكاء واتخذوه قلعة يحاربون من فوقه .

رأى بيبرس هذا فلم يمنعه من مهاجمتهم تحصنهم بالتل ؛ بل ذهب إليهم بجيشه وهناك رتب عساكره بنفسه وهم الجميع بردم الخندق، وسرعان ما انتهوا منه وصعدوا فوق التل وانقضوا على الصليبيين ؛ ففروا منهزمين إلى المدينة والجيش يتعقبهم بعد أن هدم الأبراج وأحرق الأشجار وامتلأ الجو بالدخان . وحين دخل الصليبيون مدينة عكا ، أغلقوا أبوابها كيلا يتمكن المسلمون من اقتحامها ؛ غير أن الأمراء حملت على الأبواب الواحد بعد الآخر ثم انقضوا

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٨٣ — ٤٨٧

على الصليبيين دفعة واحدة شتتوا فيها شملهم إذ ألقى فريق منهم فى الخنادق وقتل عدد عظيم وامتلأت أيدى الجيش المصرى بالأسرى والغنائم [١] .

وفى سنة ٦٦٣هـ (١٢٦٥ م) سار بيبرس إلى بلاد الشام على رأس جيش كبير لمحاربة التتار ؛ غير أنه لما أتت إليه الأخبار بارتدادهم عن البيرة ابتدأ فى مهاجمة المدن اللاتينية [٢] ؛ فسار إلى قيسارية ونصب عليها المجانيق ثم اقتحمها ففر أهلها إلى قلعتها واضطروا إلى تسليمها بعد أن استمر الهجوم عليها خمسة أيام ، ثم هدمت أسوارها رغم تحصينات لويس التاسع لها . ولم يكن بيبرس يشجع الجند أثناء ذلك فحسب بل كان يشاركهم فى هدم الأسوار بنفسه .

لم يترك بيبرس الفرنجة عند حد هذه الهزيمة التى نزلت بهم فى قيسارية، بل لم يكد ينتهى من هذه المعركة حتى أرسل جيشاً إلى عثليث وحيفا أوقع التخريب فيهما ، ثم حول وجهه نحو قلعة أرسوف البحرية الواقعة جنوبى قيسارية وشرع فى مهاجمتها ، غير أن سكانها (الفرسان الهوسبتاليين) دافعوا عنها دفاع الأبطال مدة أربعين يوماً . وبينما كان بيبرس يهاجم المدينة كان الحماس الدينى بالغاً أشده فى نفوس الفقراء والدراويش حتى النساء الذين تجمعوا لحفر الخنادق تحت الأرض . وفى النهاية اضطر بيبرس للمفاوضة مع الحامية وأمنهم على حياتهم ، ثم أكرههم على العمل فى تخريب حصونهم بأيديهم . وعندما شرع فى العودة إلى القاهرة زين بهم موكبه وهم يحملون الصلبان مكسرة والأعلام منكسة [٣].

وقبل أن يغادر الملك الظاهر ساحة القتال أقطع أمراءه قطائع من الأرض

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٨٥ — ٤٨٩ .

(٢) Stevenson : The Crusaders in the East p. 338.

(٣) Sir William Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p .20

التى انتزعها من الصليبيين وسجل هذه العطايا فى صحيفة [١] أوردها كل من النويرى[٢] والمقريزى[٣] . وقد بدأها بوصف حكمه وعظمته بألفاظ تنم عن الفخر والاعتزاز بالنفس ، وأنه هو الذى وطد دعائم الدين الإسلامى بهزيمة أعدائه من التتار والصليبيين ، كما أشاد فيها بذكر ماقام به أمراؤه من الخدمات الجليلة التى جعلته يؤثرهم على نفسه ويمنحهم البلاد والضياع .

لم يقلع الصليبيون عن تعديهم على ما ليس لهم من المدن والقلاع وشن غاراتهم على ممتلكات سلطان مصر . ففى سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦ م) أغار بوهمند السادس ملك أنطاكية على مدينة حمص ، فأرسل إليها بيبرس قوة لنجدتها ثم سار من مصر بكل مالديه من الجنود[٤] . ولما وصل إلى غزة سير جيشاً إلى ناحية حمص بقيادة الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى والأمير سيف الدين قلاوون الألفى ؛ فأغاروا على الفرنجة ، ثم ورد عليهم كتاب السلطان بالتوجه إلى طرابلس ، فساروا على غرة من العدو ونزلوا على حصن الأكراد وأغاروا على ساحل البحر من جهة طرابلس واستولوا على بعض القلاع . أمابيبرس فإنه توجه لزيارة بيت المقدس والخليل ؛ فزار قبر سيدنا إبراهيم عليه السلام وأفاض النعم على حراسه وأمرهم بعدم السماح لأهل الذمة بزيارة هذا المكان المقدس[٥] . ثم اتجه نحو مقصده فتقدم نحو عين جالوت وأرسل بعض الأمراء فى عدة من العسكر لغزو صور وصيداء وجهة القرن

---

(١) ذكر مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٣٨ — ١٣٩ و ١٤٤ أن الظاهر بعد أن قرر منح أمرائه بعض الاقطاعات أرسل النسخ التى سجل فيها العطايا لأمرائه إلى مصر ليوقع عليها الوزير والخازندار وديوان الجيش ، ثم أعيدت إليه ثانية ووزعت على أصحابها . ولما تم ذلك حضر الأمراء إلى السلطان ليقدموا له فروض الشكر على ما منحه إياهم وقدم بعد ذلك قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان إلى غزة وكتب إقراراً بتمليك هذه المنح للأمراء ووافق عليه السلطان ثم أعطى كل أمير نسخة منه .

(٢) نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٢٧٧ — ٢٨٠

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٣٠ — ٥٣٤ .

(٤) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p, 21.

(٥) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الثانى ص ٢٨٥ — ٢٨٦

ثم سار بنفسه إلى عكاء وأقام بها حتى قدم إليه هؤلاء العساكر محملين بالغنائم فرحل معهم إلى مدينة صفد[1] . وهناك وافته الحملة التي سيرت لتخليص حمص بعد أن قامت بمهمتها[2] .

تجمعت هذه القوى أمام صفـــد . ولم يتخل بيبرس عن جيشه أثناء الهجوم بل كان يشتغل بنفسه في محاصرتها ويشجع الجنود . وقد ضرب لنا المثل الأعلى بما كان يبذله من الجهد والعناية بالمرضى والجرحى ؛ وفي نفس الوقت منع شرب الخمر في المعسكر ، وشدد العقوبة على من تحدثه نفسه بالنهب أو بإتلاف بالمزروعات [3] .

ظلت الحرب قائمة بين الفريقين على قدم وساق وكلاهما يزداد همة ونشاطاً إلى أن ضعف الصليبيون آخر الأمر عن المقاومة ، فسقطت قلعة صفد بعد حصار دام ثلاثة أسابيع على الرغم من أنها كانت محصنة تحصيناً قوياً واضطر رئيس الداوية إلى التسليم على أن يؤمنهم بيبرس على حياتهم وأن يرحلوا إلى عكاء سالمين [4] . فأمنهم على أن تخرج الحامية من القلعة بغير سلاح ولا لامة حرب وألا يتلفوا ذخائر القلعة [5] .

على أن الفرنجة لم يلبثوا أن نقضوا الأمان[6] ونكثوا العهد . فقد وجد

---

(١) كانت صفد في ذلك الوقت إحدى معاقل الفرسان الداوية .

King : The Knights Hospitallers in Holy Land p. 260.

(٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٤٥ — ٥٤٦

(٣) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle, Ages p. 267.

(٤) King : The Kinghts Hospitallers in Holy Land p. 261.

(٥) النويري : نهاية الأرب ج ١٨ القسم الثاني ورقة ٢٩٠ ؛ وقد زاد على ذلك المفضل: كتاب النهج السديد ص ١٤٩ ، فقال إنه اشترط عليهم أن يفتشهم عند خروجهم ، فإن وجد مع أحد منهم شيئاً مما منعهم في أخذه انتقض العهد .

(٦) هناك رواية ذكرها مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٥٠ ؛ يفهم منها أن جنود حامية صفد الصليبيين لم تخل بالشروط وأن السلطان لم يكن مرتبطاً معهم شخصياً بعهد أمان وإليك نصها (. . حكى الأمير ركن الدين بيبرس العلائي أن السلطان لم يحلف =

بيبرس أنهم عندما خرجوا من القلعة حملوا معهم أسلحتهم وأمتعتهم كما وجد معهم بعض الأسرى من المسلمين أخرجوهم معهم على أنهم نصارى فأخذ ما معهم ثم ضرب أعناقهم على تل بالقرب من صفد . ولم ينج منهم سوى رجلين أحدهما الرسول الذى أسلم وظل فى خدمة بيبرس ، وثانيهما أطلق بيبرس سراحه وسمح له بالذهاب إلى عكاء ليخبر الفرنجة بما شاهده [١] .

وهنا تبدو لنا صورة يراها المطلع فى ظاهرها غدراً ولكن إذا ما بحث عن أسبابها وعللها اتضح له أنها لم تخرج عن كونها جزاء طبيعياً لمن حلت بهم . فلم يتعد بيبرس بفعله حدود ما أمنهم عليه وشرطوه على أنفسهم . وهذا العمل يعتبر غدراً لو أنه قتلهم بعد التأمين فى وقت لم ينقضوا فيه عهداً . أما وهم قد نقضوا العهد فليس فعله إذن من الغدر أو الخيانة فى شىء . ولا معنى لحمل بعض المؤرخين من أمثال Muir هذا العمل من بيبرس على الغدر والنكث . وفى ذلك يقول ميور [٢] « إن هذا الجرم الفظيع عزاه فريق إلى أن الأسرى حين خروجهم حملوا أسلحتهم وأمتعتهم ، كما أن فريقاً آخر يرى أنه يرجع إلى أن بعض المسلمين وجدوا مسجونين بالقلعة . على أن هذه الأسباب لا تمحو عن ذلك الفاتح تلك النقطة السوداء التى لصقت بإنسانيته بل بإيمانه » .

تم الأمر على ما ذكرنا واستولى الظاهر على مدينة صفد بعد أن خرب

= لأهل صفد وإنما أجلس مكانه كرمون أغا التترى وأوقف الأمراء فى خدمته ، فخاف لهم كرمون وعمل عليهم الوزير الذى لهم وكان نصرانياً ، فنزلوا على يمين كرمون . فلما نزلوا جعلوا عليهم الحجة أنهم أخذوا معهم ما لم يقع عليهم اليمين فضربت رقابهم عن آخرهم وكانوا نحواً من ألفى فارس .

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٤٧ — ٥٤٨ ؛ هذا ، وقد كان الشخص الذى أسلم ودخل فى خدمة السلطان فارساً من الداوية . أما الثانى الذى ذهب إلى عكاء ليخبر الفرنجة بما رآه فكان من فرسان الأسبتار King : The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 261.

(٢) The Mameluke or Slave Dynsty of Egypt, p. 22.

قلعتها ، غير أنه فى السنة التالية أعاد بناءها واشترك فى ذلك بنفسه وكتب على أسوارها عبارات تدل على انتصاراته وتغلبه على الصليبيين نقتطف منها ما يأتى : (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) . أمر بتجديد هذه القلعة المحروسة وتحصينها وتكملة عمارتها وتحسينها من خلصها من أيدى الفرنج الملاعين وردها إلى أيد المسلمين ونقلها من مسكن إخوة الداوية إلى سكن إخوة المؤمنين فأعادها للإيمان كما بدأها أول مرة وجعلها الكفار خسارة وحسرة . ولم يزل بنفسه يجتهد ويجاهد حتى عوض عن الكنائس بالجوامع والبيع بالمساجد وبدل الكفر بالإيمان والناقوس بالأذان والإنجيل بالقرآن ووقف بنفسه التى هى أعز النفوس حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منه ومن خواصه على الرءوس ، سلطان الإسلام والمسلمين . . سيد التتار . فاتح القلاع والحصون والأمصار ، وارث الملك ، سلطان العرب والعجم والترك ، إسكندر الزمان ، صاحب القرآن أبو الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين .. (١) » .

فما تقدم نرى أن غزوات بيبرس انقلبت منذ سنة ١٢٦٥م إلى محاولات فى سبيل التوسع والفتح . فاستولى على قيسارية وأرسوف وسوى بحصونها الأرض (٢) ، ثم نراه بعد أن يستولى على صفد يوجه نظره إلى هونين (Chateauneuf) والرملة فيستولى عليهما من غير مقاومة (٣) .

وعندما توجه الملك الظاهر لمقابلة جيوشه العائدة من بلاد سيس بعد انتصارها على هيتوم ملك أرمينية سنة ١٢٦٦م علم أن سكان قرية «قارا» (٤) يتعدون على أصحاب الضياع ويغيرون على المسلمين ويبيعون من تقع عليه

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٣٦ — ١٣٨

(٢) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 267.

(٣) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 261.

(٤) تقع على الطريق من دمشق إلى حمص . ياقوت : معجم البلدان .

أيديهم ببيع الرقيق إلى الفرنجة بحصن عكاء[١] . فلم ير الظاهر بدا أمام هذه الفظائع من الإغارة عليهم فى عقر دارهم وضربهم ضربة شديدة . فأحرقت صوامعهم ومزقت أوصال رهبانهم وحولت كنيستهم إلى مسجد وأخذ شبانهم مماليك فى أيدى المماليك وسيروا إلى مصر حيث ترقى بعضهم إلى المناصب العالية[٢] .

بعد أن استقر مقام الظاهر بمصر توجه فى جماعة من أمرائه إلى بلاد الشام . فنزل غزة ورحل منها إلى صفد؛ وعلم إذ ذاك بتوجه التتار إلى الرحبة فسار إلى دمشق ولما دخلها بلغه خبر ارتدادهم .فعاد ثانياً إلى صفد[٣] ، ثم حاول أن يفاجىء عكاء بهجومه ؛فسير فرقتين من الخيالة متخفيتين بأن ألبس عسكر إحداها ملابس الفرسان الاسبتار ، والثانية ملابس فرسان الداوية . غير أن هذه الحيلة لم تلبث أن كشف أمرها ؛وعلى الرغم من ذلك فقد قام المسلمون بمذبحة هائلة مع السكان الذين يقيمون خارج أسوار المدينة[٤] .

ولما رأى بيبرس أن المدن اللاتينية فى ذلك الوقت ترغب فى عقد الصلح اتبع خطة واضحة إذ اتفق مع بعضها وترك البعض الآخر يتحمل هجماته ؛فعقد الصلح مع أميرة بيروت[٥] ومدينة صور التى اضطرت إلى دفع مبلغ كبير من المال[٦] وأطلقت سراح الأسرى المسلمين ،كما عقدت المدنة

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٥٢ — ٥٥٣

(٢) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. p. 24.

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٥٨

(٤) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 262.

(٥) ذكر العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٤ ، أن رسل هذه الأميرة قدمت إلى الملك الظاهر وهو بصفد فى شعبان سنة ٦٦٥ هـ لأن أخاها كان قد غرر بمركب بها جماعة من التجار متوجهين إلى قبرص ؛ فطلب منهم السلطان أن يحضروا إليه مال هؤلاء التجار ويطلقوا سراحهم ، فلبوا طلبه وعقد الصلح معهم .

(٦) هذا المبلغ كان عبارة عن الدية التى أخذها أولاد السابق شاهين غلام الملك الظاهر . وكان قد قتل بصور فقرر السلطان عليهم دفع ١٥٠٠٠ دينار صورية . النويرى ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٢٩٨ .

بينه وبين الاسبتار بحصن الأكراد والمرقب [١] . وقد أسهب القلقشندى [٢] فى بيان هذه المهادنة ونكتفى هنا بذكر بعض ماوقع عليه الصلح بين الطرفين لنتبين منه قوة الملك الظاهر وجيشه ولنتعرف أيضاً حال الصليبيين بوجه عام وما آل إليه أمرهم من الاستكانة والضعف ؛ فقد نصت هذه المهدنة على :

١ — أن يكون أمدها عشر سنين وعشرة أيام وعشرة ساعات تبتدىء من يوم الإثنين الرابع من رمضان سنة ٦٦٥ هـ .

٢ — ألا تنقض بموت أحد الطرفين .

٣ — ألا يأخذ بيت الاسبتار الجزية التى كانت مفروضة على بلاد الإسماعيلية وحماه وشيزر وأفامية وأبى قبيس .

٤ — أن يتولى أمر سكان هذه البلاد فيما يختص « بالحبس والإطلاق والجباية » نائب من قبل الظاهر ونائب من قبل الاسبتار ؛ فإن كانوا مسلمين حكم فيهم بشريعة الإسلام ، وإن كانوا مسيحيين عوملوا بمقتضى الشريعة المسيحية . هذه هى أهم شروط هذه المهادنة . وهناك شروط أخرى تليها فى الأهمية يطول بنا المقام فى ذكرها ؛ غير أننا نشير إلى أن كثيراً من مواد هذه المهادنة ينص على تقسيم الكثير من البلدان مناصفة بين الظاهر والصليبيين .

وفى السنة التالية (٦٦٦ هـ = ١٢٦٨ م) وجه بيبرس ضربته القاضية الثانية ضد بقايا المملكة اللاتينية . فبعد مهاجمته أسوار عكاء ظهر فجأة أمام يافا فى ٧ مارس سنة ١٢٦٨م — وكانت المعاهدة التى بينه وبين صاحبها قد انتهت على أثر وفاته سنة ١٢٦٦م ولم يجددها مع ابنه Guy d'Ibelin [٣] — فانقض

---

(١) Stevenson, The Crusaders in the East p. 340.

(٢) صبح الأعشى ج ١٤ ص٣١ — ٣٩

(٣) ذكر النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٢٩٩ أن بيبرس عندما قدم إلى صفد لبناء قلعتها وفد عليه مقدم يافا وطلب منه أن يجدد عقد المدنة بينه وبين ابن صاحب يافا فامتنع السلطان عن ذلك .

عليها من غير سابق إنذار وتمكن من الاستيلاء على المدينة وتخريبها[١] . ثم سار السلطان شمالا قاصداً الشقيف أرنون التى كان يمتلكها الفرسان الداوية وكانت محصنة تحصيناً قوياً ، فلم يستطع الوصول إليها إلا فى ٦ إبريل من السنة المذكورة ، واستخدم فى هدم أسوارها ستة وعشرين منجنيقا . وبعد تسعة ايام من وصوله تمكن من الاستيلاء عليها[٢] .

ولما تم استيلاء بيبرس على الشقيف اتجه إلى شمال سورية ؛ فسار إلى طرابلس وهاجم البلاد المحيطة بها، ولم يستطع الأمير بيموند السادس أن يوجه ضده أية مقاومة[٣] ، ثم رحل إلى صافيتا وانطرسوس فتلقاه صاحبهما بالترحاب وأطلق سراح ثلاثمائة أسير كانوا عنده ، فلم يتعرض السلطان لبلاده وتقدم نحو الشمال إلى حمص ومنها سار إلى حماه ؛ وهناك قسم جيشه إلى ثلاث فرق للزحف على بلاد أنطاكية تولى قيادة إحداها ونزل بها على أفامية . وعندما وصل إلى أنطاكية وافته بقية جيوشه[٤] ، وبدأ يهاجمها فى أوائل مايو سنة ١٢٦٨م (رمضان سنة ٦٦٦ هـ) ، واقتتل الفريقان قتالا شديداً أسر أثناءه حاكم المدينة . وكان بيبرس فى ذلك الوقت يرغب فى عقد الصلح لوقف تيار

---

(١) زاد العينى (عقد الجمان ج٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٧) على ذلك فقال : إن المسلمين لما استولوا على مدينة يافا لجأ أهلها إلى القلعة وطلبوا الأمان على أن يخرجوا بأموالهم وأولادهم ؛ فأجابهم السلطان وتسلم القلعة منهم .

(٢) ذكر المفضل (النهج السديد ص ١٦٤ — ١٦٥) أن الملك الظاهر توسل بحيلة للاستيلاء على الشقيف . وتتلخص فى أنه عندما قدم إليها عثر على كتاب من الفرنجة المقيمين بعكاء يتضمن إفادة النواب بالشقيف أن المسلمين لا يستطيعون الاستيلاء على الحصن إلا إذا دافعوا عنه دفاعاً جيداً . ولما اطلع بيبرس عليه أرسل إلى المقدم المقيم بالشقيف كتاباً يذكر فيه أمارات بينه وبين أهل عكاء ويحذره من الوزير المقيم عنده ومن جماعة وردت أسماؤهم فى الكتاب ، كما أرسل كتاباً آخر للوزير يحذره من هذا المقدم ويأمره فيه بأنه إن احتاج إلى مال يأخذه من ملك ذكر اسمه فى الكتاب . فلما وقف أهل الشقيف على هذه الكتب وقع الخلاف بينهم فى الوقت الذى كانوا محاصرين فيه ، فاضطروا إلى تسليم حصن الشقيف :

(٣) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 263

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٧

القتال حقناً للدماء التي تراق ، فحاول أن يوسط ذلك الحاكم الذى أسره فى أن يلقى السكان أسلحتهم ويسلموا المدينة ؛ غير أنهم أبوا ذلك وظلوا يدافعون عن مدينتهم ممتنعين عن تسليمها . حينئذ لم يجد بيبرس بداً من مهاجمة أسوار المدينة وأوصد أبوابها فى وجه السكان ، وانقض عليهم ذبحاً وقتلا وأسراً : وكان عددهم نيفاً ومائة ألف نسمة بما فيهم الرهبان والقسس(١) .

وحين رأى رجال الحامية — وكان عددهم ثمانية آلاف — أن المدينة وقعت فى أيدى المسلمين ، ارتدوا إلى القلعة ثم سلموها فى اليوم التالى على أن يؤمنوا على حياتهم . وبذلك سقطت مدينة أنطاكية بعد حصار دام خمسة أيام(٢) .

ولم يكتف بيبرس بهذا الدمار الذى أنزله بالمدينة بل أسر حامية القلعة (٣) ووزع أفرادها على الأمراء(٤) . ثم أرسل إلى بيمند — وكان إذ ذاك بطرابلس — رسالة تهكم يشاطره فيها الحزن على مصير حاضرة ملكه وضمنها عبارات

---

(١) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 25.

(٢) King : The Knights Hospitallers io the Holy Land, p. 263.

(٣) يفهم من عبارة النويرى : نهاية الأرب ج٢٨ القسم الثانى ورقة ٣٠٨ فى هذا الصدد ، والمفضل : كتاب النهج السديد ص١٧١ — ١٧٢ ، أن الحامية هى التى طلبت من السلطان أن تأخذهم أسرى . وإليك نص عبارة النويرى « . . وأما القلعة فاجتمع بها ثمانية آلاف مقاتل غير الحريم والأولاد فتحاشروا بها ولم يكن بالقلعة ماء يكفيهم فسيروا يوم الأحد ثانى يوم الفتح يطلبون الأمان من القتل وأنهم يأخذون أسرى فللوقت طلع السلطان فصادف جميع من فى القلعة قد خرج إلى ظاهرها وعليهم اللابس الحسنة ، فاستغاثوا السلطان فعفا عنهم من القتل وأحضرت الحبال فربطوا بها وتسلم كل أمير جماعة من الأسرى » .

أما عبارة المفضل فلا تختلف اختلافاً كبيراً فى ألفاظها ومعانيها عما ذكره النويرى ، لذلك نكتفى بالاشارة إليها .

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٧ .

التقريع والسخرية . وقد أوردها كل من النويرى(١)، والمفضل(٢) ، والعينى(٣) وسنكتفى بذكر بعض فقراتها لأهميتها :

« بسم الله الرحمن الرحيم » قد علم القومص الجليل المبجل المعزز الهمام الأسد الضرغام بيمند فخر الأمة المسيحية رئيس الطائفة النصرانية .. ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له فى عقر الدار ، وماشاهده بعد رحيلنا من إخراب العمائر والأعمار ، وكيف كنست تلك الكنائس على بساط الأرض .. وكيف قتلت الرجال واستخدمت الأولاد وتملكت الحرائر .. وكيف نهبت لك ولرعيتك الأموال والمواشى ، وكيف استغنى الفقير وتأهل العازب .. وأنت تنظر نظر المغشى عليه من الموت .. وكيف فارقنا بلادك ولا بقيت بها ماشية إلا وهى لدينا ماشية ولا جارية إلا وهى لدينا جارية .. وها نحن نعلمك بما تم ونفهمك بالبلاء الذى عليك قد عم . رحلنا عنك من طرابلس يوم الأربعاء الرابع والعشرون شعبان (كذا فى الأصل) ونزلنا بأنطاكية فى مستهل رمضان ، وفى حالة النزول خرجت عساكرك إلى المبارزة فكسروا وتناصروا فما نصروا ، وأسر من بينهم كند اسطبل فسأل فى مراجعة أقرانك ودخل إلى المدينة وخرج هو وجماعة من رهبانك وأعيان أعوانك فتحدثوا معنا فرأيناهم إلى رأيك من إتلاف النفوس بالغرض الفاسد . . فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت وأنهم قد قدر الله عليهم بالموت رددناهم وقلنا نحن الساعة لكم نحاصر .. فرجعوا متشبهين بفعلك ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك . . وفتحناها بالسيف فى الساعة الرابعة من يوم السبت رابع عشر رمضان . . وبعد هذه المكاتبة لاينبغى لك أن تكذب خبراً كما أن بعد هذه المخاطبة يجب ألا تسأل غيرها مخبراً .

---

(١) نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٣٠٨ — ٣١١

(٢) كتاب النهج السديد ص ١٦٧ — ١٧١

(٣) عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٩ — ٥٤٢

ولما تم لبيبرس فتح أنطاكية سلم قلعتها للأمير بدر الدين بيلبك الخازندار والأمير بدر الدين بيسرى الشمسى، ثم أمر بإحضار الغنائم وقسمها بين أفراد جيشه(١). وعلى أثر انتهائه من ذلك سار إلى القلعة وأشعل النار فيها فامتد لهيبها إلى أنحاء المدينة؛ وبذلك تركها أثراً بعد عين(٢).

هزت كارثة أنطاكيـــة جميع الصليبيين فهرب الفرنج الداوية ببغراس وتركوا الحصن خالياً، فأرسل الظاهر قوة من جنده احتلت القلعة واستولت عليها، ثم أعدها بالعدة والرجال، وأصبحت منذ ذلك الوقت فى عداد الحصون الإسلامية(٣). كذلك هال أمر هذه الحوادث سكان القلاع الصليبية الأخرى ورغبوا فى موادعة الظاهر كيلا ينالهم ما نال إخوانهم؛ فطلبت إمارة طرابلس المفاوضة فى الصلح، وبدأت المفاوضة فعلا، ورافق بيبرس سفراءه فى زى خادم ليتعرف خباياها ويدرسها تمهيداً لمحاصرتها فيما بعد، وكذلك عكاء — وهى البقية الباقية من دولة بيت المقدس — طلبت المفاوضة والصلح(٤) فقدمت رسل صاحبها إلى السلطـــان بدمشق على أثر عودته من أنطاكية وتفاوضت معه فى هذا الأمر(٥). فتقرر عقد معاهدة بينهما على أن تكون بلاد عكاء مناصفة بين بيبرس وصاحبها وأن تظل حيفا وصيداء على حالها. غير أن هذه المواد عندما عرضت بعكاء لإقرارها لم تصادف قبولا(٦).

---

(١) زاد على ذلك العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٩، فقال إن ما خص بيبرس من غنائم أنطاكية أرصده لعمارة الجامع الذى أنشأه بالحسينية بالقاهرة.

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ٣١٢ و ٣١٩ — ٣٢٠ ؛ المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٨.

(٣) أبو الفدا : المختصر فى اخبار البشر، ج ٤ ص ٥

(٤) Stanley Lane-Poole: A History of Egypt in the Middle Ages, p.269.

(٥) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٤٤

(٦) يفهم مما ذكره المقريزي : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٧٠ فى هذا الصدد أن =

أما بلاد صور فقد أغار عليها بيبرس قبل أن يعود إلى مصر فى أواخر يولية سنة ١٢٦٨م [١] . وعلى الرغم من أنه كان من سياسته أن يوطد دعائم الصلح بينه وبين بعض المدن اللاتينية ، فإن البعض الآخر — كصور — لم يعط أية مهادنة . وقد زحفت الجيوش الإسلامية مرة أخرى فى ربيع سنة ١٢٦٩م على أراضى عكاء وصور ، وسالم بيبرس بنفسه فى هذه الحركات وتهادن مع بيروت وما جاورها من البلاد [٢] .

لم تفتر همة بيبرس الحربية عن مناوأة الصليبيين ، فكان يستولى على معاقلهم الواحد بعد الآخر رغم ما كان يصل إليهم من المدد من أوربا [٣] . وكان السلطان ينظر دائماً إلى بوهمند السادس كأكبر خصم له . والواقع أنه كان أقوى الأمراء الصليبيين ؛ فبعد أن نزع بيبرس منه أنطاكية عمد إلى إتمام إسقاطه بالاستيلاء على طرابلس . وكان من الضرورى قبل استيلائه على تلك المدينة أن يستولى على الحصون الخارجية ، لذلك شرع فى الاستيلاء على حصن الأكراد وبدأ فى محاصرته فى شعبان سنة ٦٦٩ هـ (فبراير سنة ١٢٧١م) ، وظل المسلمون يحاصرون القلعة حتى تمكنوا من الاستيلاء عليها فى ٣٠ مارس من السنة المذكورة ، واضطرت الحامية إلى ترك أسلحتها وتسليم القلعة ؛ فعاملهم السلطان معاملة حسنة وأمنهم على حياتهم وأطلق سراحهم .

غير أن بعض الفرسان الهوسبتاليين عادوا للحرب وصمموا على التضحية

= السلطان أرسل إلى صاحب عكاء محيى الدين بن عبد الظاهر والأمير كمال الدين بن شيث ليحلفا صاحب عكاء على هذه المعاهدة وكان معهما هدية فيها عشرون نفساً من أسرى أنطاكية ، فلم يوافق على بعض موادها .

(١) أورد العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٤٩ و ٥٥٠ ، السبب الذى من أجله أغار بيبرس على مدينة صور ، فقال إنه عندما خرج من دمشق بعساكره إلى الديار المصرية جاءته امرأة فى أثناء الطريق وأخبرته بأن ابنها لما دخل صور غدر به صاحبها وأخذ ماله ، فركب السلطان وشن الغارة على مدينة صور وغنم منها غنائم كثيرة .

(٢) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 342.

(٣) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 25.

بحيث تم حتى يخرجوا المسلمين من القلعة ؛ فلم ير المسلمون بدأ من إحضار آلات الحصار داخل القلعة ليكونوا على استعداد لهدم الملجأ الأخير لهؤلاء الفرسان، ورأى السلطان أن يستولى على بقية الحصن من غير أن يصيب تحصيناته خسائر كثيرة. لذلك أرسل إلى الحامية خطاباً مزوراً[1] على اعتبار أنه مرسل من رئيس الفرسان الهوسبتاليين يأمرهم فيه بتسليم الحصن. وكان من أثر ذلك أن فتح الهوسبتاليون باب المفاوضات مع السلطان ونظمت شروط التسليم. وفى اليوم التالى ساروا إلى طرابلس[2].

وبعد أن تسلم بيبرس الحصن كتب إلى رئيس فرسان الاسبتار[3] — وهو صاحب حصن الأكراد — كتاباً[4] هذا نصه : « إلى (افريرأوك) جعله الله ممن لا يعترض على القدر ولا يعاند من سخر لجيشه النصر والظفر ولا نعتقد أنه ينجى من أمر الله بالقدر ولا يحمى منه محجور البناء ولا مبنى الحجر . نعلمه بما سهل الله من فتح حصن الأكراد الذى حصنته وبنيته وخليته وكنت الموفق لو أخليته واتكلت فى حفظه على اخوتك فما نفعوك ، وضيعتهم بالإقامة فيه فضيعوه وضيعوك . وما كانت هذه العساكر تنزل على حصن وتبقى أو تخدم سعيداً وتشقى » .

وأمام هذا الهجوم المتواصل حسبت بقايا الصليبيين أن الصلح و الاستكانة

---

(١) ليس هناك فى المصادر العربية ما يشير إلى أن بيبرس أرسل خطاباً مزوراً لحامية حصن الأكراد . ونحن نستبعد ذلك على بيبرس . ولو أن هذه الواقعة كانت حقيقة لأشار إليها Stevenson, Muir لا سيما وأن Muir خاصة كثيراً ما ينحى بالائمة على بيبرس فى بعض مواقفه . وقد أجمعت المصادر الأخرى على أن أهل قلعة حصن الأكراد لما غلبوا على أمرهم سلموا القلعة وطلبوا الأمان فأمنهم السلطان وأطلق سراحهم ثم رحلوا إلى طرابلس .

(٢) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 270

(٣) كان رئيس فرسان الاسبتار فى هذه السنة Hugh Revel King : Op. Cit p. 271;

(٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٦ ، العينى : عقد الجمان ج ٢ المجلد الثالث ص ٥٦٣

خير ما تستطيع أن تكسب . فلم يكد بيبرس ينتهى من حصن الأكراد حتى سارع مقدم الداوية بأنطرسوس إلى طلب الصلح وبعث مفاتيح حصنه إلى السلطان ، فصالحه على أن يرسل إليه نصف مايتحصل من غلال بلاده . وعين والياً من قبله على هذه البلاد . كذلك قدمت إليه رسل الاسبتار بحصن المرقب تطلب الصلح ، فتعاهد معهم على مثل ما تعاهد به مع الداوية بأنطرسوس ، وقرر أن تكون الهدنة بينه وبينهم لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام (١) .

ولما تم لبيبرس الاستيلاء على حصن الأكراد رحل إلى حصن عكار (٢) ، وبدأ هجومه عليه فى ١٧ رمضان سنة ٦٦٩ هـ (٢٩ أبريل سنة ١٢٧١ م) وشددت عساكره الحصار . وحين رأى سكان الحصن ألا طاقة لهم بقتال جيش بيبرس طلبوا الأمان ، فلبى السلطان طلبهم وأمنهم على حياتهم (٣) . وبذلك تمكن من الاستيلاء على هذا الحصن ثم استعد ليهاجم طرابلس بنفسه . ولكن أخبار قدوم الأمير إدوارد (٤) وبعض الصليبيين إلى عكاء فى ٩ مايو سنة ١٢٧١م جعلته يرضى بعقد الصلح (٥) .

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٨٩ — ١٩٠

(٢) يقع شمالى طرابلس وهو مبنى على جبل بنفس الاسم .
Le Strange : Palestine Under Moslems pp. 80, 390.

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٧

(٤) هذا الأمير هو الذى أصبح فيما بعد ملكا على انجلترا باسم **(Edward I)** . وقد أبحر من **Southampton** فى أغسطس سنة ١٢٧٠ م ، وبصحبته ثلاثمائة فارس وثلاثة عشر مركباً ، فلما وصل إلى سردينيا سمع بوفاة لويس التاسع ملك فرنسا الذى كان قد أبحر إلى تونس على رأس حملة صليبية ، فأبحر الأمير إدوارد إلى قرطاجنة ووصل إلى معسكر الصليبيين بعد إمضاء الهدنة بين الصليبيين وملك تونس . ولم يعجب هذا الأمير اختتام هذه الحملة الصليبية على هذا النحو الذى انتهت إليه فانصرف إلى صقلية حيث قضى فيها الشتاء ثم أبحر فى الربيع إلى عكاء .
King : The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 268:

(٥) Stevenson, Crusaders in the East, p. 343; King, The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 271.

على أن بيبرس قد شرع فعلا فى مهاجمة طرابلس ، فأحاطت عساكره بها وشددت الحصار عليها ، فأرسل إليه أميرها بوهمند السادس يقول له : « ما مرادك أيها السلطان فى هذه الأرض ؟ » . فقال : « جئت لأرعى زرعكم وأخرب بلادكم ثم أعود إلى حصاركم فى العام الآتى » . فأرسل إليه أمير طرابلس يستعطفه ويطلب منه عقد الصلح [1] ، فسير إليه السلطان الأمير فارس الدين الأتابك والأمير سيف الدين بلبان الرومى الدوادار بمقترحات لعقد الصلح، فامتنع بوهمند عن قبولها وعزم على مواصلة القتال ؛ وقال للأميرين : « إن السلطان لما أخذ أنطاكية منى بالسيف كان عذرى مبسوطاً عند الفرنج ، ولما قصد حصن عكار فطلب (كذا فى الأصل) منى أن أنزل عن نصف بلادى ، فلم أجبه خوفاً من الفرنج أن يعيرونى بتسليمى البلاد من غير حرب وقتال وأنا أعلم أنى لا أقدر به ، لكننى لا يحسن بى أن أسلم إليه البلد من غير قتال حتى لا يكون على عتب من ملوك الفرنج » . فعاد الأمير سيف الدين إلى السلطان وأخبره بذلك ، فرأى أن يعامله بالحسنى ويتفق معه على أن تكون له عرقة وجبيل وأعمالها . أما ساحل أنطرسوس والمرقب وبانياس فتكون مناصفة بين السلطان والداوية والاسبتارية ، فرفض بوهمند أيضاً هذه الشروط فما كان من السلطان إلا أن صمم على ما اشترطه عليه أولا ، فلم ير بوهمند السادس بدأ من ذلك الصلح وتهادن معه لمدة عشر سنوات .

ولما تمت هذه المهادنة توجه صاحب طرابلس إلى أبغا ملك التتار يستصرخه على المسلمين ، وذكر له مافتحه بيبرس من البلاد والحصون فأمر به فضرب بين يديه . وقال له : « أنت ما جئت إلا لتخوفنى منه وتنفرنى عنه وتملأ قلوب عسكرى رعباً [2] » .

وهكذا تم للظاهر الكثير من رغباته ومآربه من الصليبيين الذين كان

(١) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٦٦

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٩٢ — ١٩٥

يبذل جهده على استخلاص البلاد الشامية كافة منهم وضمها إلى حوزته وكانت هذه المهادنة المعقودة بينه وبين أمير طرابلس خاتمة أعماله الحربية معهم وإن كانت المناوشات بينه وبينهم قد ظلت قائمة حتى أواخر أيامه . فنى أوائل يونية سنة ١٢٧١ م كان مركز قيادة بيبرس بصفد[١] ، فسار منها إلى حصن القرين[٢] وهاجمه حتى استولى عليه فى ١٢ يونية[٣] . ولما رأى أهله ألا طاقة لهم بملاقاة المسلمين طلبوا الأمان فأمنهم السلطان وقرر خروجهم إلى حيث شاءوا على ألا يستصحبوا معهم مالا ولا سلاحاً[٤] . ثم سار السلطان إلى أبواب عكاء ، ولم يلبث بعد ذلك أن عاد إلى القرين وأمر بهدم قلعتها فهدمت[٥] .

وفى هذه الأثناء كان الأمير إدوارد لا يزال بعكاء وقد تمكن من إعداد قوة يتراوح عددها بين ستة آلاف وسبعة آلاف جندى ؛ فرأى بيبرس من جهته أن يعمل على منع بارونات جزيرة قبرس من الانضمام إليه . فأرسل أسطولا إلى هذه الجزيرة للاستيلاء عليها : غير أن هذا الأسطول مالبث أن

(١) مدينة فى جبال عاملة (وهى من جبال لبنان) المطلة على حمص . ياقوت معجم البلدان .

(٢) يقع هذا الحصن بالقرب من صفد ويسمى أيضا Montfort أو Starkenburg
King : The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 271

وقد ذكر مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٩٧ — ١٩٩ : أن بيبرس لما دخل القرين قدم إليه رسولا صاحبى قبرص وطرابلس وتحدثا معه فى الجلاء عن هذا الحصن . فقال له رسول صاحب طرابلس : « البرنس غلام السلطان وقد شفع عندك فى الحصن وسألك أن ترحل عنه » فقال السلطان : « كلامه عندى مقبول ، ولو جاءنى رسوله قبل نزولى عليه ما خالفته . وقد نزلت عليه ولا يمكننى الرحيل عنه » . ثم تحدث معه رسول صاحب قبرص فقال : « صاحبى سيرنى لأنظر إلى السلطان : هل رحل أم لا ، فانه بلغه أن العساكر تقدمت إلى مصر » . فقال السلطان : « رحلت من عساكرى الأثقال والضعفاء ، ثم قال : فهل لم يسألك حاجة نقضيها له فإنه عندنا ضيف؟ » فقال الرسول : « لم يأمرنى بشىء » . ثم مضى وعاد : فقال : « حاجته عندك أن تدفع له بعلبك ونابلس » « فقال له السلطان : « إنا نأخذ منكم حصونكم أولا فأول وتطلبوا منى حصونى ؟ » .

(٣) Stevenson : The Crusaders in the East, pp. 343-344.

(٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ — ورقة ٩٩

(٥) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٣٣٢

حطمته عاصفة عند شواطئها . وفى شهر يونية من سنة ١٢٧١ م تقدم الأمير إدوارد وهو ملك قبرس إلى الناصرة ، وكانا يأملان من ذلك أن يرغما بيبرس على رفع الحصار عن حصن القرين ، غير أن أملهما هذا لم يتحقق ؛ فانتهز إدوارد فرصة عودة السلطان إلى مصر فى شهر يولية من هذه السنة وأغار على الرملة واللد[١] .

ولم يمض على هذا الحادث وقت طويل حتى قام الصليبيون فى عكاء بإغارة أخرى على البلاد المجاورة لقاقون (Kakun)[٢] عندما كان السلطان منشغلا بصد غارة التتار فى نوفمبر من السنة المذكورة ؛ فسير إليهم الأمير أقوش الشمسى فردهم على أعقابهم وأسر منهم عشرين فارساً[٣] .

وعلى الرغم من أن النصر كان حليف بيبرس فى جهات عكاء وصور فإنه سارع إلى تلبية طلبات الصلح لعدم انقطاع المدد الجديد من أوربا ولرغبته فى التفرغ لصد غارات المغول الذين تحركوا هذه السنة وغزوا شمال الشام . فاتفق مع رسل صاحب صور على تقسيم بلادها بينه وبين الفرنجة[٤] . وعقد الصلح مع ملك قبرس وحامل لقب بيت المقدس لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشر أيام[٥] .

يتجلى لنا من هذه الحوادث والغارات المتتابعة أن الظاهر كان فى كل غزواته للصليبيين ينتصر عليهم ويهزم جيوشهم ويستولى على حصونهم ومدنهم

---

(١) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 272

(٢) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 344. — وقاقون حصن بفلسطين بالقرب من الرملة . ياقوت : معجم البلدان .

(٣) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٠٤ — ٢٠٥

(٤) وضح المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٩٥ هذا الاتفاق فقال إنه تقرر أن يكون للفرنجة من بلاد صور عشرة بلاد ويكون للسلطان بلاد يختارها والبقية تكون مناصفة بينهم وبينه .

(٥) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p'269.

واحدة تلو أخرى . ولم نرهم فى أية موقعة نالوا منه شيئاً أو كتب لهم النصر عليه . وأسباب ذلك لاتخفى على الباحث إذا ماجال ببصره مدققاً فى حالة هؤلاء الصليبيين وما كانوا عليه من أخلاق وعادات أثناء إقامتهم بهذه الديار التى حلوا بها وقاتلوا عليها مدة قرنين من الزمان أريقت خلالها دماؤهم وضاعت أموالهم وبذلوا فى سبيلها كل مرتخص وغال . ومن أهم الأسباب التى أدت إلى هزيمتهم وسقوط مدنهم وضياع شوكتهم فى البلاد الشامية حتى آل أمرهم فى نهاية حكم بيبرس إلى الانكماش والانزواء فى حصن أو حصنين :

أولا : كان هؤلاء الصليبيون رغم اتحادهم فى الدين متنافسين متحاسدين قد استحكمت بينهم أسباب الشقاق والنزاع ، وذلك مما كان يؤدى إلى فشلهم فى حروبهم .

ثانياً : لم يكن لهم حاكم مسيطر على جميع مدنهم يعترف له الجميع ويدينون له بالطاعة ، ولم توجد بينهم سلطة عامة تحفظ النظام وتعمل على توحيد كلمتهم وضم صفوفهم مما دعا إلى تشتت أهوائهم وتنازع رغباتهم وانصرافهم عن السبب الذى من أجله جاءوا إلى هذه الأصقاع النائية عن أوطانهم [١] .

ثالثا : كانت مصالحهم متشعبة لاختلاف بلدانهم التى أتوا منها إلى تلك الديار . وقد تجلى هذا الأمر فى الفرسان المختلفين ، وكثيراً ما كان يقاتل بعضهم بعضاً [٢] . وفى هذا من إضعاف شوكتهم ونصرة عدوهم مالا يخفى .

رابعاً : نقض الصليبيين العهود التى كانت بينهم وبين المسلمين وامتناعهم عن تسليم بعض المعاقل .

خامساً : محالفة الصليبيين لهولاكو زعيم التتار الذين كانوا يترقبون اعتناقهم للمسيحية فيقوى كلاهما على منازلة المماليك فى مصر ومهاجمة بلادهم .

---

(١) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt (Introduction) pp. XXX—XXXI.

(٢) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt,)Introduction) p. XXIX

وقد كان تحالف الصليبيين مع تتار فارس سبباً فى تحالف الظاهر مع بركة خان رئيس القبيلة الذهبية التتارية ، وكلاهما مسلم يناصر أخاه على أعدائه على ما سنوضحه فيما بعد .

هذه هى أهم الأسباب التى أدت إلى فشل الصليبيين فى غزواتهم وهزيمتهم فى حروبهم . وقد يكون من الميسور نجاحهم لو تولى قيادتهم أمير يعترفون بسلطانه . ولكن الانقسام وتضارب المصالح مزقا شملهم ، فكان الفشل المحتوم نصيبهم .

* * *

كان أهل قبرس كثيراً ما يمدون الصليبيين ببلاد الشام بالمال والرجال . ولا عجب فى ذلك فهم ملة واحدة يجمعهم دين واحد . فليس غريباً إذن أن يقوم هؤلاء القبرسيون بمساعدة إخوانهم فى الدين ، بل كانوا واسطة اتصال بينهم وبين مواطنيهم من أهل أوربا .

لذلك نرى بيبرس بعد إغارته على الصليبيين بحصن القرين يرسل أسطولا لمحاربة قبرس التى ساعدت عكاء مساعدة جدية (١) . وكان أهلها لما نزل السلطان على حصن الأكراد قد سيروا إلى صاحب قبرس يطلبون منه النجدة فخرج إليهم فى عدة مراكب ، فهاج عليه البحر وحطم ستين مركباً وتابع ما بقى منها السير إلى عكاء (٢) ، فأراد بيبرس أن يغتنم هذه الفرصة فأصدر أوامره بتجهيز المراكب وتسفيرها إلى قبرس ، فغادرت المياه المصرية سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧١ م) ، غير أن عاصفة شديدة هبت عليها بالقرب من الجزيرة فحطمت منها أحد عشر مركباً عند ثغر النمسون (Limassol) . ولما علم بذلك أهل قبرس انقضوا عليها وأسروا من كان بها من المسلمين (٣) .

(١) Sir William Muir Op. Cit. p. 28

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٩٧

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٩ ، العينى : عقد الجمان المجلد الثالث ورقة ٤٠٠

لم يلبث بعد ذلك السلطان أن قدم إليه رسول صاحب قبرس يخبره بما حدث لأسطوله ، إذ قال له : « إن صاحبي يسلم عليك ويقول لك قد أخذت مراكبك » ، فقال السلطان : « قل له لا تفرح فما أخذها إلا بسيق ، ولو سلموا المراكب لأخذوا جزيرته بحول الله وقوته . وقد أخذت فى سفرتى هذه أربعة عشر حصنا . ولا شك أن العين لها حق والحمد لله الذى فدى عسكرى بالملاحين والعوام وأرجو من الله تعالى تعويض ذلك[١] » .

لم يكتف بيبرس بما قاله لهذا الرسول ، بل أرسل إلى صاحب قبرس كتاباً جاء فيه : « إلى حضرة الملك (أوك) .. جعله الله ممن يوفى الحق لأهله ولا يفتخر بنصر إلا إذا أتى قبله أو بعده بخير منه أو مثله . نعلمه أن الله إذا أسعد إنساناً دفع عنه الكثير من قضائه باليسير وأحسن له بالتدبير فيما جرت به المقادير . وقد كنت عرفتنا أن (الهواء) كسر عدة من شوانينا .. ونحن الآن نبشره بفتح القرين ، وأين البشارة بتملك القرين من البشارة بما كفى الله ملكنا من العين . وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب ، الاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجيب .. وما النصر بالهواء مليح إنما النصر بالسيف هو المليح .. وإن عدمت من بحرية المراكب آحاد فعندنا من بحرية المراكب ألوف .. وأنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول .. فلئن كنتم أخذتم لنا قرية مكسورة فكم أخذنا لكم من قرية معمورة ، وإن استوليتم على سكان فكم أخلينا بلادكم من سكان ، وكم كسبت وكسبنا فيرى أينا أغنم . ولو أن فى الملك سكوتاً كان الواجب عليه أنه سكت وما تكلم[٢] » .

لم تفتر همة الملك الظاهر بعد انهزام أسطوله ، بل شرع فى إنشاء أسطول آخر [٣] ؛ غير أنه لم يعاود الكرة فى مهاجمة جزيرة قبرس لانشغاله بمحاربة

(١) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٣٠٠

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٩ — ١٠١

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦١٥

الصليبيين والمغول . وقد تمكن فى سنة ٦٧٣ هـ من تخليص الأسرى المسلمين الذين أسروا بقبرس ، فأرسل الرسل إلى صور لابتياعهم ، فتغالى الفرنجة فى بيع الرؤساء وباعوا الثوار والرماة لطائفة منهم ؛ فلم ير بيبرس بداً من إغراء الموكلين بحراستهم بالمال فأطلقوا سراحهم وساروا إلى القاهرة . فلما علم بذلك الفرنجة بعكاء قامت الفتنة بينهم[1].

* * *

كان يقطن ببلاد الشام فى الوقت الذى عمل فيه بيبرس على مناوأة الامارات اللاتينية فى الشرق طائفة من الاسماعيلية[2] حاول صلاح الدين عبثاً القضاء عليها وظلت بعد وفاته تتمتع بنفوذ كبير اضطر إزاءه الصليبيون إلى ممالاة هؤلاء الاسماعيلية[3]، وتعدى الأمر ذلك فأصبح ملوك الفرنجة يخشون بأسهم ويعملون على إتقاء شرهم بالهدايا التى كانوا يرسلونها إليهم والتى رأى بيبرس أن يفرض رسوماً عليها ليقلل بذلك من شأنهم عند هؤلاء الملوك[4].

على أن هذه الطائفة لم تلبث أن ضعف نفوذها وانحازت إلى جانب الصليبيين . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل دخلت تحت حماية الفرسان

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ج ٤ ص ٦

(٢) الاسماعيلية هى فرقة من الشيعة عرفت أيضاً بالسبعية لأن أصحابها اعتبروا الامامة منتهية عند الامام السابع وهو إسماعيل بن جعفر الصادق المتوفى بالمدينة سنة ١٤٣ هـ فى حياة أبيه . وقد أصاب أتباع تلك الفرقة كثير من الضرر والأذى على يد خلفاء الصدر الأول من الدولة العباسية ، فتلمسوا الجهات البعيدة عن مركز الخلافة .

وقد أسس حسن بن الصباح المتوفى سنة ٥١٨ هـ شعبة أخرى من الاسماعيلية عرف أتباعها باسم الحشاشين (Assassins) كان موطنها قلعة الموت (Alamut) فى الشمال الغربى من بلاد فارس ، ثم تفرع من هذه الشعبة فرع آخر بالشام مركزه الأول حلب : Enc. Isl. Arts Ismailiya و Assassins وهذا الفرع الشامى هو الذى حول بيبرس وجهته إليه واستولى على حصونه كما سنرى فيما بعد .

(٣) Stanley Lane-Poole, p. 270.

(٤) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٢٩ ؛ المقريزى : السلوك ص ٥٤٣

الموسبتاليين ، وظلت منذ ذلك الحين تدفع لهم جزية سنوية حتى عقد بيبرس هدنة مع صاحب حصن الأكراد والمرقب سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) اشترط عليه فيها أن يمتنع هؤلاء الفرسان عن أخذ الجزية التى كانت تدفعها لهم طائفة الاسماعيلية وأمراء حماه وشيزر وأفامية [١] . وصارت رسل الاسماعيلية منذ ذلك الوقت تفد على السلطان مزودة بالأموال التى كانوا يحملونها من قبل للفرنجة [٢] .

ولما رأى نجم الدين الشعرانى صاحب قلاع الاسماعيلية أن الأموال التى يقدمها لسلطان مصر كثيرة أرسل إليه يستأذنه فى إنقاصها . وكان بيبرس فى ذلك الوقت مستاءاً منه لأنه لم يفد إليه عندما نزل بالقرب من بلاد الاسماعيلية فأمر بعزله هو وولده ؛ وقلد صارم الدين مبارك بن الرضى صاحب العليقة [٣] بلاد الدعوة الاسماعيلية على أن تكون مصياف [٤] وبلادها خاصة بالسلطان ثم أرسل جيشاً إليها بقيادة الأمير عز الدين العديمى فامتنع أهلها عن تسليمها أول الأمر ، ولم يلبثوا بعد ذلك أن فتحوا له أبوابها عندما علموا أنه نائب السلطان ، وتمكن بذلك من الاستيلاء عليها ، فلم ير نجم الدين وولده بداً من الدخول فى طاعة بيبرس ، فطلبا منه السماح لهما بالحضور بين يديه فأجابهما السلطان إلى طلبهما . وعندما قدم إليه نجم الدين ولاه حصون الاسماعيلية بالإشتراك مع صارم الدين وقرر عليه أن يدفع له كل عام مائة وعشرين ألف درهم ،

---

(١) King : The Knights Hospitallers in Holy Land p. 262 ; Stevenson : The Crusaders in the East p. 340.

(٢) المقريزى : السلوك ص ٥٥٧

(٣) إحدى حصون الاسماعيلية بالشام .

(٤) إحدى حصون الاسماعيلية بالشام وهى واقعة على الساحل قرب طرابلس وعلى مسيرة يوم من حمص . ياقوت : معجم البلدان Le Strange : Palestine under Moslems, p. 507

كما قرر على صارم الدين أن يدفع له ألف دينار [1]. ثم أخذ السلطان بعد ذلك (١٢٧٠ - ١٢٧٣ م) يستولى على حصون الاسماعيلية الواحد بعد الآخر [2]، وانتهى الأمر بأن تخلوا عن قلاعهم، فأقطعهم بيبرس فى مقابل ذلك بعض الأراضى المصرية ليستوطنوها. فكان فى هذا القضاء على قوتهم التى شغلت الظاهر وجيشه ردحاً من الزمن. ومن العجيب فى أخلاق بيبرس أنه بعد إجلائهم عن مواطنهم إلى الديار المصرية استخدمهم فى قضاء أغراضه [3].

٢ — سياسة مصر إزاء المغول

(ا) مغول فارس :

لم ينس المغول ماحل بهم فى موقعة عين جالوت؛ فظلوا يوالون الزحف والإغارة على البلاد الشامية وغيرها. فرأى بيبرس أن يتحالف مع بركة خان [4] سلطان مغول القفجاق ضد إيلخانات فارس؛ غير أنه لم يعتمد كل

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ورقة ٢٥٤ — ٢٥٥ ؛ المقريزى : السلوك ص ٥٨٦ — ٥٨٧ .

(٢) Stanley Lane-Poole, p. 270 وقد أورد المقريزى : السلوك ص ٦٠٨ ، عند كلامه على حصون الاسماعيلية ، أن بيبرس على أثر استيلائه عليها أقام بها شعائر الاسلام وشرائعه .

(٣) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 27.

(٤) كان بركة خان أول من أسلم من أمراء المغول . ولم يكن على وفاق مع هولاكو . ويرجع ذلك لعدة أسباب منها أن بركة خان لم يرض بما فعله هولاكو ببلاد المسلمين فعنفه لقتله الخليفة المستعصم ، كذلك لم يرق فى عينه تأسيس دولة هولاكو بفارس لا سيما بعد إدراج بلاد آران وأذربيجان داخل حدودها مع أنهما كانتا من إرث جوشى أبى بركة حسب وصية جنكيزخان (Enc. Isl. Art Ferke) . وهناك سببان آخران لهذه العداوة التى كانت بين بركة وهولاكو ؛ أولهما عدم مظاهرة بركة للخان الأعظم قوبيلاى وانتصاره لأخ صغير له إسمه (Arigha-Buga) ، فاعترف بركة بهذا الأخ الصغير خاناً أعظم على جميع بلاد التتر ، وثانيهما أن هولاكو منذ أن صار بركة ماسكا على مغول القفجاق (١٢٥٦ — ١٢٦٧ م) منع عن ذلك الفرع المغولى نصيبه المعتاد من مغانم الحرب . (وكان المعتاد أن يجمع التتر مايحصل من البلاد التى يستولون عليها ويقسموه خمسة أقسام : قسمان للخان الكبير ، وقسمان للعسكر ، وقسم لبيت باتوخان ببلاد القفجاق) . مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٠١ — ١٠٣

الاعتماد على هذا التحالف بل خرب الطرق والوديان المؤدية إلى الشام حتى لايجد المغول إذا تقدموا مايحتاجون إليه من الميرة (١) ، كما أن هو لاكو تحالف مع المسيحيين فى الشرق وبخاصة مع ملك أرمينية والصليبيين لكى يقوى بذلك على صد هجمات بركة خان وسلطان المماليك بمصر(٢) .

وقد كان لكل من التتار والصليبيين غاية يرمقونها من وراء هذا التحالف، فالتتار أرادوا تقوية جانبهم بانضمام هؤلاء المسيحيين إليهم فى الحروب ضد الدولة التى هزمتهم بالشام — وهى مصر — وردتهم على أعقابهم إلى بلاد فارس ووقفت لهم بالمرصاد أمام فتوحاتهم وسيرهم فى غزوهم . والصليبيون لم ينسوا الأمر الذى من أجله احتلوا المدن الشامية ، كما لم ينسوا ذلك العداء الدينى بينهم وبين المسلمين ، فأرادوا هم أيضاً أن يستميلوا إليهم التتار الذين كانوا يطمعون كثيراً فى اعتناقهم المسيحية ليكونوا جميعاً يداً واحدة على أعدائهم المسلمين شاميين ومصريين .

ولم تكن حالة المغول مما تجعل سلطاناً كالظاهر يطمئن على بلاده فى الوقت الذى كان يرمى فيه إلى تكوين امبراطورية واسعة الأطراف متحدة الأواصر . ولذلك كانت الحروب بينهم وبين بيبرس متواصلة ، ولم ينقطع عن مطاردتهم من الولايات التى كانوا يغيرون عليها كلما سنحت لهم الفرص بذلك .

ففى سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) وصل إلى الظاهر أن التتار أغاروا على البيرة وحاصروها ونصبوا عليها المجانيق، فجهز جيشاً لحاربتهم بقيادة الأمير عز الدين إيغان الملقب بسم الموت ، ثم سار على أثره إلى أن وصل إلى غزة . وهناك

---

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 266.

(٢) Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam p. 226.

علم أن عساكره لما قدمت البيرة وأشرفت عليها ولى التتار هاربين وتركوا وراءهم عددهم وأثقالهم طعمة سائغة لجنده[١] .

لم يلبث السلطان بعد ذلك أن أمر بعمارة ماخرب من البيرة وبحمل آلات القتال إليها من مصر والشام وبإعداد كل مايحتاج إليه أهلها فى الحصار لمدة عشر سنين . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل كلف بعض الأمراء وصاحب حماة بأن يقيموا على البيرة حتى يخلى الخندق من الحجارة التى رماها التتار فيه . وبينما هو منشغل بهدم سور قيسارية ورد إليه كتاب من هؤلاء الأمراء ذكروا فيه مالاقوه من شدة وعناء فى إخلاء ذلك الخندق ، فكتب إليهم : « إنا بحمد الله ماخصصنا عنكم براحة ولا دعة ولا أنتم فى ضيق ونحن فى سعة ، ما هنا إلا من هو مباشر الحروب الليل والنهار وناقل الأحجار ومرابط الكفار وقد تساوينا فى هذه الأمور وما ثم ماتضيق به الصدور[٢] » .

وهذه الكلمات تعطينا صورة واضحة عن اشتغال بيبرس وجيوشه برد الإغارات التى كانت تتوالى على نواحى متعددة من بلاده ، كما تبين لنا ملاطفته لأمرائه وتشجيعه لمن تذمر منهم وظنوا أنهم جهدوا وحدهم فى غزوهم ، وأن غيرهم من بقية الجيش لاينالهم من العناء مثل مايلقون ، كما يتضح لنا أيضاً ماتنطوى عليه نفسية هذا الملك من الجد فى محاربة المغول والصبر على جهادهم حتى تتم أمانيه ويريح بلاده من غاراتهم .

وهكذا ظل المغول فى فارس يناضلون المماليك حتى مات هولاكو[٣]

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٠

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٢٥

(٣) اختلف المؤرخون فى اليوم الذى توفى فيه هولاكو ، فنى أبى الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٤ ص ٢ أنه مات فى تاسع عشر ربيع الآخر ، وفى مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٤٥ سابع ربيع الآخر ؛ وفى المقريزى : السلوك ص ٥٤١ ، Enc. Isl. Art Hulagu أنه توفى فى يوم الأحد التاسع عشر من شهر ربيع الآخر .

سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) وخلفه ابنه أباقا[1] الذى سار على سياسة أبيه فى مناوأة المماليك ومصادقة الصليبيين ؛ فقد تزوج من ابنة امبراطور القسطنطينية (Michael Palaeologus) ؛ ومن ثم كان يعطف على المسيحيين . غير أن علاقته بالبابوات والملوك المسيحيين فى أوربا كانت سياسية أكثر منها دينية ، فكان يراسل كلمنت الرابع (Clement IV) الذى كتب إليه كتاباً سنة ١٢٦٧ م ، كما راسله جريجورى العاشر (Gregory X) عام ١٢٧٤ م ونيقولا الثالث الذى أرسل إلى أباقا سفارة مؤلفة من خمسة من الرهبان الفرنسسكان عام ١٢٧٨ م . وكان الغرض الأساسى من تلك المفاوضات هو تنظيم حملة مشتركة ضد المماليك فى مصر وسورية الذين لم تلن قناتهم بعد ، وكانوا أعداء ألداء للمغول . أما الغرض الذى كان يسعى إليه المسيحيون من هذا الحلف فهو الاستيلاء على الأراضى المقدسة التى جاهدوا من أجلها سنين عدة[2] .

على أن بيبرس قد تمكن من دفع ذلك الخطر المشترك الذى كان يهدد الدين والبلاد فهزمت جيوشه جند هولاكو المغولية ، وسنرى أنها واصلت انتصارها على جند ابنه أباقا الذين كانوا ينتهزون فرصة اشتغال الظاهر بمحاربة الصليبيين ويغيرون على بلاده وقد حدث ذلك سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦م) أثناء قدومه من مصر إلى غزة ورحيله منها إلى صفد إذا أغاروا على الرحبة[3] ، غير أنهم مالبثوا أن ارتدوا عنها كما أسلفنا .

وعلى الرغم من أن العداء كان مستحكماً بين المغول والمماليك فى ذلك الوقت ، فقد فكر أبغا فى سنة ٦٦٧ هـ فى عقد صلح مع الملك الظاهر وتوسط له فى ذلك صاحب سيس ، إذ أرسل لبيبرس عندما قدم إلى أرسوف فى هذه

---

(١) ورد هذا الاسم فى المصادر العربية أباغا ، أبغا .

(٢) Browne, A Literary History of Persia Vol III pp. 18-19

(٣) بلدة واقعة على نهر الفرات .

السنة كتاباً ينبئه فيه بأن رسول أبغا يود مقابلته ، فبعث السلطان أميراً من حلب ليحضره إليه ورحل من أرسوف إلى دمشق ؛ وهناك وفد عليه الرسول وأعطاه كتاب أبغا وقد جاء فيه : « إن الملك أبغا لما خرج من الشرق تملك جميع العالم وما خالفه أحد ومن خالفه هلك وقتل . فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا ، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحاً [١] » .

غير أن هذه الرغبة فى عقد الصلح لم تلق قبولا لدى بيبرس إذ قال لرسول أبغا : « إعلم أنى وراءه بالمطالبة ، ولا أزال أنتزع من يده جميع البلاد التى استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض [٢] » . ولم يلبث التتار بعد ذلك أن اتفقوا مع الصليبيين فى السنة التالية على الإغارة على بلاد الشام — وكان السلطان إذ ذاك مقيما بالإسكندرية — فلما علم بذلك قدم إلى قلعة الجبل ، فوردت عليه الأخبار بأن التتار أغاروا على الساجور [٣] ، فسير الأمير علاء الدين البندقدارى إلى بلاد الشام على رأس جيش كبير لمحاربتهم ؛ وسار السلطان ومعه فريق من جنوده . ولما وصل إلى دمشق بلغه أن التتار ارتدوا وولوا منهزمين [٤] .

غير أنهم عادوا الكرة فى سنة ٦٧٠ هـ فأغاروا على عين تاب وعمق الحارم — وكان الظاهر إذ ذاك مقيما بدمشق — فلما رأى جدهم فى إغارتهم أرسل إلى مصر يستدعى الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى وثلاثة آلاف فارس لطرد التتار وردهم إلى بلادهم . وعند ما وصل البيسرى إلى دمشق

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٧٤

(٢) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٤٩

(٣) نهر بجهات منبج بالقرب من حلب وتقع عليه عين تاب وتل باشر . ياقوت : معجم البلدان و Le Strange : Palestine Under Moslems. pp. 42, 402, 415. 527

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٨٤

سار السلطان بالعساكر إلى حلب ، وأرسل إلى كل من مرعش وحران والرهاء فريقاً من جيشه على رأسه أحد الأمراء [١] . وسار السلطان إلى مصر لما علم بإغارة الصليبيين على قاقون ، وظل أمراؤه يحاربون التتار حتى استولى الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى على حران ، ثم عبر الفرات وعاد إلى مصر ، فانتهز التتار فرصة غيابه وقدموا إليهاوهدموا أسوارها [٢].

لم يلبث الظاهر بعد ذلك أن عاد إلى بلاد الشام ونزل بمروج قيسارية حيث تهادن مع الصليبيين بعكاء ، ثم رحل إلى دمشق فحضرت إليه رسل التتار تطلب الصلح فأكرم وفادتهم وأرسل معهم هدية لأبغا [٣].

وعلى الرغم من هذه السياسة الودية التى اتبعها بيبرس إزاء سلطان المغول فى فارس ، فإنه بلغه فى العام التالى (٦٧١ هـ) — وهو ببلاد الشام — أن التتار قصدوا الرحبة وتقدموا منها إلى البيرة ، فتوجه إليهم على رأس جيش كبير وأخذ معه عشرة مراكب من بحيرة بالقرب من حمص وحملها على الجمال . ولما وصل إلى الفرات وجد التتار على شط النهر فأمر بإقامة جسر ، ثم شرع هو وعساكره فى عبور الفرات وألقى المراكب فى النهر ، فأبحر عليها بعض جنوده وتراموا مع العدو بالنشاب وتقاتل الفريقان فى النهر ؛ وظل الحال على ذلك حتى وصل السلطان إلى معسكر التتار ، وهناك أخذت جنوده فى مناوشتهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً [٤] ، ثم عاد السلطان وعساكره فى النهر . ولما وصل إلى الشاطىء الشرقى من ناحية الشام بلغه أن التتار الذين كانوا بالبيرة هربوا وتركوا جميع ما كان معهم من العدد والمجانيق ، فسار إليها ومنح واليها ألف دينار ثم رحل منها إلى دمشق [٥] .

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١٠٤ — ١٠٥
(٢) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٠٤ — ٢٠٦
(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٠٢
(٤) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢١٢ — ٢١٥
(٥) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٣٣٤

لم تضعف عزيمة التتار بهذه الهزائم التى كانت تلحق بهم ، إذ نراهم فى سنة ٦٧٢ هـ يشرعون فى الإغارة على بعض البلاد فى الوقت الذى قدم فيه السلطان إلى بلاد الشام . ولما علم بيبرس عند وصوله إلى عسقلان أن أبغا قصد بغداد أرسل إلى القاهرة يستدعى جيوشه فلحقت به عند يافا ، ثم سار بعد ذلك إلى دمشق ؛ غير أنه لما تقدم إليها بلغه أن التتار عادوا إلى بلادهم فأمر بإعادة عساكره إلى مصر [1] .

لم يلبث المغول بعد ذلك أن اتجهوا اتجاهاً آخر فى مناوأة بيبرس ، فقصدوا البيرة سنة ٦٧٤ هـ ومعهم خمسة عشر ألفاً من السلاجقة الروم بقيادة معين الدين سليمان البرواناه [2] . غير أنهم ارتدوا عنها عندما بلغهم تقدم السلطان إليهم . ويرجع السبب فى ذلك إلى خروج البرواناه عليهم وانحيازه للملك الظاهر واتفاقه معه على القدوم إلى بلاده . وكان من أثر ذلك أن تغير أبغا ملك التتار على البرواناه وأرسل يستدعيه ، فاعتذر بانشغاله بإعداد جهاز ابنة السلطان ركن الدين قلج أرسلان . غير أنه لم يلبث بعد ذلك أن سار إليه وأرسل جيش الروم إلى أبلستين [3] . ولما علم بتقدم الملك الظاهر إلى بلاده أرسل إلى أبغا يخبره بذلك فأمده بجيش من المغول ، ثم حدث أن اختلف أمراء الروم على البرواناه واتفق بعضهم على الانحياز للملك الظاهر ، فسيرهم السلطان غياث الدين كيخسرو إليه فتقابلوا معه بعين تاب وطلبوا منه أن يرسل معهم عسكراً ليحضروا إليه بقية الأمراء فلبى السلطان بيبرس طلبهم :

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢١٧ — ٢١٨

(٢) البرواناه لفظ فارسي معناه الحاجب . أبو الفدا : ج ٤ ص ١٠ ؛ وكان فى يد معين الدين هذا مقاليد الحكم فى الدولة السلجوقية بآسيا الصغرى منذ سنة ٦٤٢ هـ ، وعلى يده كان مقتل السلطان ركن الدين قلج أرسلان سنة ٦٦٤ هـ .

Enc. Isl. Arts : Kilidj Arslàn IV, Mu'in al-din Sulaimen Parwàna.

(٣) مدينة ببلاد الروم إسمها الحالى البستان وهى قريبة من افسوس (Ephesus) مدينة أهل الكهف . ياقوت : معجم البلدان ؛ Le Strange : Palestine Under Moslems p. 277.

وفى هذه الأثناء كان البرواناه قد عاد إلى قيسارية [١] فحال بينهم وبين السلطان غياث الدين وغيره من الأمراء فرجعوا إلى الملك الظاهر . وعندما وصلوا إليه أكرمهم وأرسلهم إلى القاهرة . وظل البرواناه مقيما بقيسارية ، أما السلطان فلم يلبث بعد ذلك أن عاد إلى مصر [٢] .

على أن أهم الوقائع التى دارت بينه وبين المغول كانت عند الأبلستين ذلك أنه قد شرع فى السفر فى رمضان سنة ٦٧٥ هـ للاستيلاء على بلاد الروم . وتنفيذاً لهذه الرغبة سار إلى بلاد الشام ومعه الأمراء والعساكر ، فوصل إلى دمشق ورحل منها إلى حلب ، ثم وردت إليه الأخبار باتفاق التتار والروم على لقائه ومحاربته [٣] ؛ فرتب بيبرس جيشه وطلع بعساكره على جبال تشرف على صحراء الأبلستين ، فانصبت عليهم الخيول الإسلامية من الجبل إنصباب السيول وحملوا عليهم حملة رجل واحد وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، وانجلت المعركة عن هزيمة التتار والروم هزيمة منكرة ، فولى البرواناه هو وأصحابه الأدبار [٤] .

ولما انتهت الواقعة أرسل الملك الظاهر إلى قيسارية الأمير سنقر الأشقر ومعه كتاب بتأمين أهلها [٥] ، ثم لم يلبث بعد ذلك أن توجه بيبرس إليها بنفسه على رأس جيش كبير فخرج الأهالى يتقدمهم القضاة والأشراف ، وقابلوه

---

(١) قيسارية أو قيصرية : إسم أطلقه الرومان على كثير من بلاد إمبراطوريتهم بالشرق وبشمالى افريقية وأسبانيا أيضا . ومن هذه قيصرية فلسطين الواقعة على الشاطىء على مسافة أربعة وعشرين ميلا جنوبى حيفا ، ومنها قيصرية الروم وهى المقصودة هنا وتقع على نهير قاراصو إحدى فروع نهر قزل إرمك . ياقوت : معجم البلدان ؛ (Enc. Isl. Art' Kaisariya)

(٢) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الرابع ورقة ٥٩٨ — ٦٠١

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٢٧ — ٦٢٨

(٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١١٨

(٥) ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٧٧

فى موكب حافل تصدح فيه الموسيقى ودخلوا به مدينتهم فنزل بدار السلطان[١] ثم جلس على عرشه قيسارية حيث تولى السلاجقة الروم الحكم عامين من الزمان . وهناك أقبل عليه الأهالى فقدموا له فروض الطاعة ، ثم أمر بأن يتعاملوا بالعملة الظاهرية ، وقسم ثروة البرواناه على جيوشه[٢] .

ولما فرغ بيبرس من ذلك تهيأ لصلاة الجمعة ، وخُطب له الخطباء بجوامع قيسارية السبعة . ثم رأى أن بقاءه بها ربما كان خطراً عليه وعلى البلاد الشامية لتوقع معاودة التتار بجموعهم إنتقاماً لمن قتل من جيوشهم وتخليصاً لمن أسر من رجالهم ، فرحل إلى الأبلستين ومر على مكان المعركة ليرى جثث القتلى من التتار ؛ وهناك أمر بجمع من قتل من عساكره ودفنهم . وكان يرمى من وراء ذلك إلى اظهار كثرة من قتل من التتار[٣] .

حدث ماتوقعه بيبرس ، فإنه بعد أن غادر قيسارية سار أبغا إلى الأبلستين . ولما زار ساحة القتال ووجد أن أغلب القتلى من التتار تأثر تأثراً عميقاً أسال دموعه[٤] ، وتغير على البرواناه عندما علم أنه كان السبب فى حمل الملك الظاهر على القدوم إلى بلاد الروم[٥] ، ثم رحل إلى قيسارية ليثأر لجيشه المهزوم وليعيد نفوذ المغول وحكمهم فيها . وعندما دخلها انتقم من مسلميها شر انتقام لمقابلتهم سلا ' ن مصر 'التجلة والترحاب وقتل منهم خلقاً كثيراً[٦] .

---

(١) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 28

(٢) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 271،

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٣١ — ٦٣٢

(٤) Browne, 'A Literary History Of Persia, Vol. III, p. 19 :
مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٧٠

(٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١٢٢

(٦) Sir William Muir : The Mameluke or Slave Dynastyof Egypt pp. 28-29

أما عن موقف البرواناه فى ذلك الوقت فإن أبغا استصحبه معـــه إلى معسكره على أثر انتهائه من قيسارية ؛ وهناك استشار أمراءه فى أمره فأشار عليه فريق منهم بقتله ، ورأى الفريق الآخر أن يعمل أبغـا على إعادته إلى بلاده لينظمها وليحمل إليه خرجها . وقد لقيت هذه الفكرة قبولا لدى أبغا فأطلق سراحه ؛ غير أن نساء أمراء المغول الذين قتلوا فى المعركة عندما علمن بذلك اجتمعن وأثرن ثورة فى وجه أبغا ، فكلف أميراً من بلاد سيس بأن يأخذ معه مائتى فارس ويسير بالبرواناه إلى مكان معين ثم يقتله ، فاستدعى هذا الأمير البرواناه وقال له إن أبغـا يود أن تركب أنت وأصحابك معه ، فركب هو وأصحابه ثم أحاط به الفرسان ، فسألهم أن يمهلوه ريثما يتوضـأ ويصلى ، فأمهلوه حتى فرغ من صلاته ثم انقضوا عليه وقتلوه[1] .

وهنا نتساءل عن تقاعد الظاهر وعدم عودته إلى مقاتلة التتار وقد تحمل هو وجيشـه من المتاعب ولاقوا من الصعوبات مايجعله حقيقاً بالإستماتة فى الدفاع عن هذا البلد وتخليصه نهائياً من يدالتتار . لعل الجواب هو أن الظاهر بعد انفضاض المعركة ومسيره إلى حارم أمر بتسيير جيشه إلى مصر ، وانتقل هو أيضاً من حارم ذاهباً إلى دمشق . وفى هذه الآونة انقض أبغا على المدينة ولم تتح الفرصة للظاهر أن يتراجع إليها لقتال شر هذا العدو حتى داهمها وقتل أهلها ، وعدا ذلك فإن الجيش المصرى قد بلغ من الضعف غاية أقعدته عن الرجوع دفاعاً عن قيسارية ، إذ قل العدد وهلكت المواشى ونفقت الأقوات وعدم العلف لكثرة مالاقى الجيش فى هـــذه المعركة من وعورة الطريق وصعوبة المسالك وزمهرير البرد . وهناك أمر آخر حال دون رجوع بيبرس إلى قيسارية بعد مغادرتها ، ذلك أنه بعد أن فارقها إلى دمشق لم يلبث أن عاجلته

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١٢٤ ؛ مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٧٤ — ٢٧٥

منيته فتوفى قبل أن يتمكن من إعادة الكرة على الأعداء ويردهم على أعقابهم.

(ب) مغول القفجاق :

خالفت القبيلة الذهبية [١] أبناء جلدتها من التتار ودخلت فى حلف مع المماليك بمصر مع ماهم عليه من العداء لإخوانهم تتار فارس . فقد اعتنق رئيسها بركة الإسلام [٢] . وكان لإسلامه وما كان بينه وبين المماليك بمصر

(١) لما قسم جنكزخان إمبراطوريته وأملاكه بين أولاده الأربعة ، كان نصيب جوجى وهو أكبر أبنائه البلاد الواقعة بين نهر أرتش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين . وكان إسم تلك البلاد عامة القفجاق ويطلق عليها إسم القبيلة الذهبية (Golden Horde) نسبة إلى خيام معسكراتها ذات اللون الذهبي . وكان غالب أهلها تركا وتركمان . ولما مات جوجى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) اقتسمت بلاده أنصبة بين أولاده الأربعة عشر . وكان أكبر أولئك الأبناء أوردا (Orda) وهو الذى خلف أباه على سائر المملكة أول الأمر وثانيهم باطو (Bàtù) الذى آثرته قبائل القسم الغربى من المملكة على أخوته وأعلنته ملكا عليها واعترف بذلك جنكزخان نفسه قبيل مماته . لهذا انكمش سلطان أوردا إلى القسم الشرقى فقط وعرف باسم القفجاق الشرقى أو القبيلة البيضاء (White Horde) . وكان مركز مملكة باطو الجهات الواقعة على الشاطىء الأيسر لنهر الفولجا . وقد اتخذ بها عاصمة سماها (Saràì) وهو الذى غزا أوربا فتوغل فى الروسيا وبولندا والمجر ودلماشيا (٦٣٥ — ٦٤٠هـ) (١٢٣٧ — ١٢٤٠م)، وطارت شهرته حتى اعتبره سائر قبائل التتر بجميع بلاد القفجاق أحق أبناء جوجى خان رغم وجود أوردا على قيد الحياة . وصار باطو بعد ذلك يلقب بخان القبيلة الذهبية وهو لقب شامل لجميع بلاد القفجاق شرقيها وغربيها ، فأصبح يعدل فى السلطان والعظمة الخان الأعظم مانجوخان الذى خلف كيوك سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٠ م) . ولقد مات باطوخان سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م) وتولى بعده مباشرة ولده طرطق ، لكنه توفى فى نفس تلك السنة ، فتولى بعده بركة خان ثالث أبناء جوجى خان Enc. Isl. Arts : Cingis Khan, Bàtù Khan, Bereke

(٢) يقال فى سبب إسلامه إنه تلاقى يوماً مع عير التجارة آتية من بخارى فاختلى بتاجرين منهم وسألهما عن الاسلام فشرحاه شرحا مقنعاً انتهى به إلى اعتناق هذا الدين والاخلاص له . وقد كاشف أول الأمر أصغر إخوته عن تغييره لدينه واعتناقه الاسلام وحبب إليه اعتناقه ، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه لهذا الدين الجديد . ويذكر الجوزجانى الذى جمع تاريخه فى حياة بركة خان ، أن بركة خان قد اعتنق الاسلام منذ طفولته . ولما شب وبلغ سن التعليم حفظ القرآن على أحد علماء مدينة خوقند (Khodjand) . ويذكر لنا نفس المؤلف أن جميع جيشه كان مسلماً ، كما يذكر بعض الثقات أنه قد جرت العادة أن يحمل كل فارس فى جيشه سجادة الصلاة حتى إذا ما حان وقت الصلاة اشتغلوا بصلاتهم ، كما لم يكن فى جيشه من يتعاطى أى مسكر . وكانت جماعته تضم مشاهير العلماء من المفسرين ورجال الحديث والفقهاء وعلماء الكلام . =

من الصلات الوثيقة أثر كبير فى انتشار الإسلام بين أهالى تلك القبيلة . فقد حذا حذوه الكثير من زعماء المغول فى هذه البلاد رغم مقاومة الكثيرين لذلك الدين وحيلولتهم دون انتشاره بينهم ، حتى إنهم فكروا فى خلع بركة خان حين أعلن إسلامه وعرضوا تاج المغول على هولاكو ألد أعدائه(١) .

ولما علم بيبرس بإسلام بركة كتب إليه يغريه بقتال هولاكو(٢) . وقد أفضنا القول فيما كان بين بركة وبينه من العداء ، كما ذكرنا كيف تحالف هولاكو مع الصليبيين ضد سلطانّ مصر ؛ فلم يكن بد إذن من أن يكون بركة والظاهر — ودينهما الإسلام — فى كفة واحدة ضد عدوهما المشترك الذى يريد الإغارة على بلادهما .

دخل بركة خان فى حلف مع الظاهر بيبرس الذى ابتدأ تلك العلاقات الودية من جانبه بأن احتفى بشرذمة من جند القبيلة الذهبية ، يبلغ عددها المائتين ؛ وكانوا قد فروا إلى سورية لما ظهر لهم من العداء المستحكم بين ملكهم وبين هولاكو ، ثم توجهوا من سورية إلى مصر حيث استقبلوا بكل مظاهر الحفاوة والتكريم فى بلاط بيبرس الذى أقنعهم بصحة الدين الإسلامى واعتناقه(٣) وأنزلهم فى دور بنيت لهم فى اللوق وهى المعروفة الآن بباب اللوق — كما سيأتى — وبعث إليهم الخلع والأموال ، وأمر كبراءهم وأدمج بعضهم فى سلك المماليك ومنحهم بعض الإقطاعات . وكان من أثر

= وكان فى حوزته عدد كبير من كتب الدين ، كما كانت معظم مجالسه ومحاوراته مع العلماء . وكانت المحاورات الدينيـة تشغل أكثر مجالسه ، كما كان سنياً مغالياً شديد التمسك بدينه .
Sir Thomas Arnold, The Preaching of Isiam, pp. 228-229,
على أن بركة خان لم يكن متعصبا تعصبا أعمى يشهد بذلك أن عاصمته سراى كانت منذ سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) كرسياً لأسقفية مسيحية Enc. Isl. Art. Berke

(١) Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, pp. 239-240.

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٦٥

(٣) Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, p. 228.

هذه المعاملة الحسنة التي عامل بها بيبرس هؤلاء المغول أن تكاثر الوافدون من رجال القبيلة الذهبية على مصر حيث اتخذوا الإسلام ديناً لهم [١] .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل قدم إلى مصر سنة ٦٦١ هـ رسل الملك بركة ومعهم كتاب منه جاء فيه « .. فليعلم السلطان أنى حاربت (هولاكو) الذى من لحمى ودمى لإعلاء كلمة الله العليا تعصباً لدين الإسلام لأنه باغى (كذا فى الأصل) والباغى كافر بالله ورسوله . وقد سيرت قصادى ورسلى صحبة رسل السلطان .. ووجهت ابن شهاب الدين غازى معهم لأنه كان حاضراً فى الواقعة ليحكى للسلطان مارآه بعينه من عجائب القتال ، ثم ليوضح لعلم السلطان أنه موفق للخيرات والسعدات ، لأنه أقام إماماً من آل عباس فى خلافة المسلمين وهو الحاكم بأمر الله فشكرت همته وحمدت الله تعالى على ذلك لاسيما لما بلغنى توجهه بالعساكر الإسلامية إلى بغداد واستخلاص تلك النواحى من أيدى الكفار [٢] .. » .

أرسل إليه السلطان الرد [٣] فى سبعين ورقة بغدادية [٤] ، وأنفذ إليه هدية [٥] مع الأمير فارس الدين أقوش المسعودى والشريف عماد الدين

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١١٧ — ١١٨

(٢) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٤٩٤ — ٤٩٥

(٣) ذكر ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ج ٢ ص ٤٢٢ ب « أن بيبرس جمع فى هذا الكتاب من الترغيب والاستمالة والاغراء على (هولاكو) وإظهار الميل إليه وأنه وصف فيه جنود الديار المصرية وما هى عليه وأهلها من حب الجهاد فى سبيل الله تعالى . . . » .

(٤) كان الورق البغدادى أجود أنواع الورق وأكبره سعة . ويستعمل فى كتابة المصاحف ومكاتبة كبار الملوك . وفى ذلك يقول القلقشندى (صبح الأعشى ج ٢ ص٤٧٦) « وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البغدادى ، وهو ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشية وتناسب أجزائه ، وقطعه وافر جداً ، ولا يكتب فيه فى الغالب إلا المصاحف الشريفة ، وربما استعمله كتاب الانشاء فى مكاتبات القانات ونحوها » .

(٥) ذكر بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٧٣ ، أن هذه الهدية كانت تحتوى على ختمة شريفة مكتوبة بخط عثمان بن عفان وسجادات الصلاة متنوعة الألوان =

الهاشمى ، وأمر الخطباء بأن يدعوا للملك بركة بعد الدعاء له على المنابر بمكة والمدينة والقدس والقاهرة .

ولما رأى بيبرس أن إمبراطور القسطنطينية عطل رسله عن الذهاب إلى بركة خان [١] ، أحضر البطارقة والأساقفة الذين كانوا عنده وسألهم عن مصير من ينقض العهد فأجابوا بأنه يحرم من دينه ؛ فأخذ السلطان إقراراً منهم بذلك وأرسل إلى الإمبراطور راهباً يونانياً ومعه قسيس وأسقف ليعلنوه بقرار الحرمان . ولم يكتف بذلك بل كتب إليه كتاباً أغلظ له فيه القول .

وعندما وصل هؤلاء القسس إلى الإمبراطور أطلق رسل الملك الظاهر [٢] فساروا إلى بركة خان . ولما قاربوا معسكره قابلهم الوزير شرف الدين القزوينى فأنزلهم فى منزلة حسنة ، ثم استدعاهم الملك بركة لمقابلته . وعندما مثلوا بين يديه أخذ منهم الكتاب الذى أرسله إليه بيبرس وأمر وزيره بقراءته . ولما فرغ من ذلك احتفل بقدومهم وأضافهم عند زوجته (ججك خاتون) ، وظل يستدعيهم من وقت لآخر ويتحدث إليهم فى بعض الشئون ، وطلب منهم أن يذكروا له شيئاً عن النيل وعن الأمطار فى مصر ، كما سألهم عن الفيل والزرافة

= وسيوف وخوذ مذهبة ومنجنيقات ومشاعل وسروج خوارزمية وقناديل مذهبة وخيول عربية . وهناك أصناف أخرى أوردها مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١١٢ — ١١٣ ، ولم يشر إليها بيبرس الدوادار وهى الفيل والزرافة اللذان أرسلهما بيبرس لبركة ، وكذلك بعض الملبوسات والأمتعة والأوانى الصينية .

(١) كانت رسل الملك الظاهر قد سارت إلى القسطنطينية فى طريقها إلى بركة . ولما أقبل عليهم الامبراطور ميخائيل باليولوجس أكرمهم ووعدهم بالمساعدة على التوجه إلى البلاد الشمالية ؛ غير أنه لم يف بوعده ، وظل يماطلهم بحجة أن أحد رسل هولاكو قد وصل إليه فى ذلك الوقت وأنه يخشى أن يعلم بأمرهم ؛ فطلبوا منه أن يعيدهم إلى مصر إذا لم يتمكن من مساعدتهم فى التوجه إلى بركة ، وذلك بعد أن قضوا عنده سنة وثلاثة أشهر ماتت فى أثنائها الحيوانات التى أرسلها بيبرس مع رسله ليسلموها للملك بركة

(٢) المقريزى . السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٩٨ و ٥١٤

اللذين كانا ضمن الهدية التى أرسلها بيبرس إليه ، ثم عادوا إلى مصر بعدما أقاموا عنده ستة وعشرين يوماً [١] ، وذكروا عند عودتهم أن كل أمير وأميرة فى بلاط بركة خان له إمامه ومؤذنه الخاص وأن الأطفال يحفظون القرآن فى المدارس [٢].

لم تقتصر العلاقة بين الملك الظاهر وبركة على هذه المراسلات التى تبودلت بينهما . والتى كان من أثرها قدوم كثير من مغول القبيلة الذهبية إلى مصر واعتناقهم الإسلام وإقامتهم بها ، بل اقترنت بزواج الملك الظاهر بابنة بركة خان[٣] . وبذلك ارتبطت دولة مغول القفجاق بدولة المماليك بمصر برباط المصاهرة وتوثقت العلاقة بينهما وظلت الحال على ذلك بعد وفاة بركة سنة ٦٦٥هـ.

وفى عهد خلفه منكوتمر[٤] استمرت العلاقات الودية قائمة بين الدولتين وتبودلت الرسائل بينهما للاتفاق على مناوأة بيت هولاكو والقضاء عليه ؛ فأرسل بيبرس فى سنة ٦٦٦ هـ إلى منكوتمر كتاباً يغريه فيه بقتال أبغا [٥] وأجابه على ذلك منكوتمر بأن أرسل إليه رسالة فوض له فيها الاستيلاء على جميع ماأخذه هولاكو من أراضى المسلمين ، كما طلب منه أن يساعده على استئصال شأفة مغول فارس . وقد حمل هذه الرسالة إلى بيبرس عدة رسل من بيت بركة — وكان الفرنجة قد أسروهم وأخذوا ما معهم — ، ثم أطلق سراحهم القائمون بإدارة عكاء . ولما علم بذلك الملك الظاهر أصدر أوامره بمنع التجار

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١١٩ — ١٢٠

(٢) Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, p. 229

(٣) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 266.

(٤) لم يترك بركة خان بعد وفاته ولدا فآل ملكه إلى منكوتمر (Mongke-Timur) وهو ابن أخيه باطو خان (Enc. Isl. Art. Bereke)

(٥) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٧

الأجانب بالإسكندرية من السفر حتى يعوضوا ما أخذه أصحـــابهم من هؤلاء الرسل[١].

وهكذا ظلت العلاقة ودية بين بيبرس ومغول القبيلة الذهبية فى الوقت الذى كان فيه العـــداء قائماً بينه وبين مغول فارس، حتى أوقع بهم — كما رأينا — وهزمهم هزيمة منكرة سنة ١٢٧٧ م، واستحكم العداء بينهم منذ ذلك الوقت، ولم تكن هناك جريمة أشد فى نظر مغول فارس من أن يروا رجلا منهم فى علاقة حسنة مع المماليك، حتى كانت الوسيلة الفذة للإيقاع بأى مسلم من رعايا المغول هى اتهامه بالاتصال بالمماليك فى مصر[٢].

٣ — علاقة مصر بأرمينية

ابتدأت العلاقات تظهر لأول مرة بين دولة المماليك فى مصر وأرمينية فى الوقت الذى تقدم فيه هيثوم[٣] (Hethum) على رأس جيش كبير إلى عين تاب سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م)؛ فسير بيبرس إلى حلب جيشاً مكوناً من عسكر حماه وحمص[٤]. ولما تقابل الجيشان وهزم الأرمن استنجد هيثوم بالتتار، فقدم إليه سبعمائة فارس كانوا ببلاد سلاجقة آسيا الصغرى. وقد

(١) مفضل بن أبى الفضائل: كتاب النهج السديد ص ٢٠٧ — ٢٠٨

(٢) Browne, A Literary History of Persia, Vol. III. p. 20.

(٣) كان لهيثوم ملك أرمينيـــة المسيحى الأثر الأول فى العمل على إقناع إمبراطور المغول مانجوخان (٦٤٦ — ٦٥٥ هـ = ١٢٤٨ — ١٢٥٧ م)، وحمله على إرسال تلك الحملة التى فتحت بغداد تحت قيادة هولاكو (٦٥٤ — ٦٦٣ هـ = ١٢٥٦ — ١٢٦٥ م) الذى أظهر العطف الشديد للمسيحيين وبخاصة النسطوريين منهم بتأثير زوجته المسيحية؛ ومن ثم اعتنق الكثيرون من المغول الذين فتحوا بلاد أرمينية وجورجيا الدين المسيحى وتمددوا على يد المسيحيين من سكان تلك الجهات. Sir Thomas Arnold : The Preaching of Islam p. 221.

وقد انضم هيثوم هذا إلى هولاكو رغبة منـــه فى حماية مملكته من السلاجقة الروم بالشمال ودولة المماليك بالجنوب، وصارت تلك المملكة ولاية تابعـة لدولة المغول فى فارس. Enc. Isl. Art. Armenia

(٤) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقـة ٧٩؛ المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥١٠

تمكن بمساعدتهم من متابعة السير ومحاصرة بلدة حارم. غير أن تساقط الثلج وزمهرير الشتاء اضطرهم إلى التراجع ثانية [١] .

ولما تم للملك الظاهر الاستيلاء على قلعة صفد من الصليبيين رحل إلى دمشق سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦م) وأمر عساكره بالسير إلى سيس [٢] والإغارة عليها؛ فخرجوا من دمشق بقيادة الملك المنصور صاحب حماه واخترقوا مضايق قيليقيا . وبذلك تمكنوا من الدخول إلى بلاد سيس حيث التقوا مع الملك هيثوم ، فاقتتل الجيشان ودارت الدائرة على الأرمن ، فهزم ملكهم وأسر أحد أولاده «ليفون» ، ثم دخل المسلمون سيس وغنموا كل ما فيها [٣] .

لم يلبث بعد ذلك هيثوم أن أرسل إلى بيبرس أخاه فاساك (Vassak) شافعاً فى ولده ، فوعده السلطان بتلبية طلبه ، على أن يعمل هيثوم على إطلاق سراح سنقر الأشقر [٤] وأن يرد القلاع التى أخذها من مملكة حلب ، وهى بهسنا ودربساك ومرزبان وشبح الحديد [٥] . أظهر هيثوم استعداده لتلبية الطلب الأول بعد أن طلب من السلطان أن يمهله بعض الوقت ، وتردد فى تسليم القلاع ، فكتب إليه السلطان يقول : « إذا كنت تقسو على ولدك وولى عهدك فأنا أقسو على صديق ما بينى وبينه نسب ويكون الرجوع منك لا منى . . . » . فلما ورد هذا الكتاب إلى هيثوم سارع فى طلب الصلح على شروط منها : أن يعمل على إطلاق سراح سنقر الأشقر وأن يسلم لبيبرس

(١) Sir William Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 23.

(٢) وهى عاصمة أرمينية الصغرى (قيليقية) وموقعها بين أنطاكية وطرسوس . ياقوت : معجم البلدان .

(٣) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٥٢ .

(٤) كان هولاكو قد أسر سنقر هذا أثناء إغارته على حلب واستيلائه عليها من الملك المنصور ؛ المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٨ .

(٥) العينى : عقد الجمان . المجلد الثالث ورقة ٥٤٤ ؛ أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، ٤ ج ص ٥ .

قلعة بهسنا ودربساك وكل ما أخذه من البلاد الإسلامية ، وفى مقابل ذلك يطلق السلطان سراح ليفون . ثم كتبت الهدنة بأنطاكية وأرسل بيبرس أحد أمرائه إلى مصر ليحضر ليفون ، فقدم إليه بدمشق وحلفه على نسخة الصلح التى حلف عليها والده [١] .

على أن أمد هذه الهدنة لم يطل ، فإن بيبرس على أثر انتصاره على المغول عند نهر الفرات سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٣ م) وتشتيته شملهم قام بعدة حملات سنة ٦٧٣ هـ على حدود آسيا الصغرى كللت كلها بالنجاح . وفى إحدى غزواته المروعة التى قام بها على الأرمن لنقضهم العهود كانت مدينتا سيس [٢] والمصيصة [٣] مسرحاً للسلب والنيران وعاثت جنود الظاهر فساداً فى كل البلاد من طرسوس إلى أطنة ، وكانت غنائمهم عظيمة حتى لقد ملأت فضاء أنطاكية [٤] .

مما تقدم نرى أن الأرمن لو ظلوا بعيدين عن نفوذ التتار ولم يخضعوا لرغباتهم لكان خيراً لهم وأدعى إلى بقائهم آمنين فى ديارهم بعيدين عن إثارة غضب المصريين عليهم وتنكيلهم بهم هذا التنكيل الذى انتهى بسقوطهم وإضعاف شوكتهم وتشتيت شملهم [٥] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٩

(٢) ذكر مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٢٦ ، أن سبب خروج السلطان هذه المرة إلى سيس هو أن معين الدين البرواناه كان قد كتب إلى بيبرس يحرضه على الدخول إلى بلاد الروم لما ضاق ذرعا بأباى (Atchai) بن هولاكو الذى فكر فى قتله ؛ غير أن البرواناه لم يلبث أن غير رأيه وكتب إلى السلطان يقول له « أقصد هذه السنة (٦٧٣هـ) سيس ، وفى السنة القادمة أملكك البلاد » فلقى هذا القول قبولا لدى الظاهر وذهب إلى سيس سنة ٦٧٣ هـ .

(٣) مدينة على شاطىء نهر جيحان وهى تقارب طرسوس وبينها وبين أطنة تسعة أميال . ياقوت : معجم البلدان ؛ Le Strange : Palestine under Moslems p. 505.

(٤) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 27. ؛ المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦١٧ — ٦١٨

(٥) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. p. 24.

٤ — العلاقات مع ملوك أوربا

كانت علاقة بيبرس بالملوك المعاصرين له مختلفة ؛ ففى الوقت الذى كان فيه العــــداء مستحكما بينه وبين الصليبيين والمغول فى فارس نراه يخطب ود إمبراطور الدولة البيزنطية[١] ويوفق فى ذلك فيعقد معه محالفة دفاعية . وقد وجد هذا الإمبراطور من سلطان مصر خير معين وعضدله على عدوهما معاً فى البلاد الشامية .

ولما استحكمت بين الدولتين عرا المسالمة طلب الإمبراطور من بيبرس بطريقاً من الطائفة الملكانية لمن يعتنقون هـذا المذهب فى دولته ؛ فأرسل إليه السلطان الأمير فارس الدين أقوش المسعودى ومعه الرشيد الكحال وبعض الأساقفة . فلما وصلوا إليه استقبلهم بكل مظاهر الحفاوة والتكريم وأطلع الأمير أقوش على المسجد الذى جدد بناءه[٢] ؛ ثم عاد هـذا الأمير ومعه البطريق محملا بالهدايا . وعندما علم السلطان بأن الإمبراطور جدد بناء ذلك المسجد شرع فى تأثيثه ؛ فأرسل إليه الحصر والقناديل المذهبة والمباخر والسجادات والطيب[٣] .

---

(١) كان أمبراطور القسطنطينية « ميخائيل باليولوجس » مخالفاً فى المذهب لكنيسة روما ، كما كان عدواً للصليبيين الذين يعتنقون المذهب الكاثوليكى وهؤلاء بحكم مذهبهم كانوا أعداء لكنيسة القسطنينية وعوامل العداء متأصلة فى نفوس الفريقين . ومن الطبيعى أن تقوى عوامل البغضاء والكراهية فى نفس الامبراطور ميخائيل لكل من ينتمى إلى كنيسة روما سيما لهؤلاء الذين تسموا باسم الصليبيين لما أتوه من العبث وسوء الادارة أثناء حكمهم للدولة الرومانية الشرقية مدة نصف قرن ، فقد أسسوا دولة بها سنة ١٢٠٤ م ظلت قائمة هناك إلى أن جاء هذا الامبراطور فقضى عليها سنة ١٢٦٢ م ؛ وبذلك تمكن من إعادة الدولة البيزنطية إلى القسطنطينية . Stanley Lane-Poole, p. 260. ; Camb. Med. Hist. IV pp. 507 et Seq.

(٢) بنى هذا المسجد مسلمة بن عبد الملك فى خلافة أخيه الوليد سنة ٩٦ هـ . وقد هدمه اللاتين أثناء إغارتهم على القسطنطينية (١٢٠٤ — ١٢٦٢ م) ، العينى : عقد الجمان . المجلد الثالث ورقم ٤٨١ . Stanley Lane-Poole, p. 266.

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقه ٢٦٢ . المقريزى : السلوك ص ٤٧١ — ٤٧٢ .

وقد أحسن الملك الظاهر صنعاً بالتحالف مع هذا الإمبراطور ليستعين به هو أيضاً على الصليبيين ، وليفسح المجال للتجارة المصرية فى بلاده حتى يصير التجار وغيرهم آمنين على أنفسهم وأموالهم ، هذا إلى وقوفه فى وجه اللاتين الذين كانوا يوالون إمداداتهم إلى إخوانهم الصليبيين بالشام .

على أن بيبرس لم يلبث بعد ذلك أن أساء الظن بحليفه سنة ٦٦٢هـ (١٢٦٤م) عندما عاق رسله عن مواصلة السير إلى بركة خان كما تقدم فاعتقد أنه انضم إلى جانب هولاكو . وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد الإمبراطور فى السنة التالية يرسل إليه الهدايا [١] مما يدلنا على أنه كان يحرص على محالفة بيبرس . على أن هناك حادثة تشعرنا بأن العلاقة بين السلطان والإمبراطور أصبح يشوبها بعض الفتور وذلك على أثر زواج أباقا بن هولاكو من ابنة إمبراطور القسطنطينية [٢] . فكان من أثر هذه المصاهرة أن تقرب كل من أباقا والإمبراطور من الآخر وفى هذا ما فيه من الخطر العظيم على دولة بيبرس .

لم يكتف الملك الظاهر بمحالفته إمبراطور القسطنطينية ، بل تبادل مع منفرد ملك صقلية وتسكانيا [٣] الرسل والهدايا؛ فأرسل فى سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١م) وفداً [٤] مزوداً بالتحف وعدداً من الزراف وجماعة من التتار الذين أسروا فى موقعة عين جالوت بخيولهم التترية وعدتهم [٥] . ولما قدم هذا الوفد إلى الإمبراطور تلقاهم بالترحاب وأعجب بالهدية وخاصة بالزراف والتحف .

---

(١) المقريزى : السلوك ص ٥١٤ ، ٥٣٧

(٢) Browne : A Literary History of Persia p. 18.

(٣) Stanley Lane-Poole, p. 266.

(٤) يفهم مما ذكر فى Ens. Isl. Art, Ibn Wâsil أن هذا الوفد كان برئاسة جمال الدين ابن واصل .

(٥) Camb. Med. History VI p. 177

ولم يلبث بعد ذلك أن أرسل إلى السلطان هدية مع أحد رسله[١]؛ وبذلك توثقت عرا الصداقة بين البلدين وازدادت رسوخاً فى عهد شارل صاحب أنجو[٢] (Charles of Anjou) على أثر الكتب والهدايا التى تبودلت بينهما سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م)، وفضلا عن ذلك فإنه أصبح لبيبرس بعض النفوذ فى صقلية. ويتضح لنا ذلك من هذا الكتاب الذى أرسله إليه أحد كبار رجال دولة الملك شارل، إذ قال له فيه « إن مخدومه (شارل) أمره أن يكون أمر الملك الظاهر نافذاً فى بلاده وأن أكون نائب الملك الظاهر كما أنا نائبه[٣] ». وربما كان يقصد من وراء هذا الكتاب إلى تحقيق رغبة الملك شارل فى عقد معاهدة تجارية بين دولة المماليك ومملكة صقلية.

ولم تقف مساعى بيبرس عند هذا الحد بل عقد معاهدات تجارية مع جيمس ملك أرجونة (Aragon) وألفنس أمير إشبيلية[٤] الذى تبودلت بينه وبين الملك الظاهر الرسل والهدايا. وكان ألفنس هذا قد أرسل إلى السلطان رسالة يخطب فيها وده فأجابه بيبرس على ذلك بأن أرسل إليه رسلا مزودين بالهدايا، وكانوا كلما مروا على بلدة من بلاده قابلهم أهلها بالحفاوة والإكرام واستمروا على ذلك الحال حتى قدموا إليه، فأكرم وفادتهم وقبل

---

(١) أعاد الامبراطور مع هذا الرسول مملوكين بحريين عندما أساءا الأدب على أثر قدومهما إليه مع هدية السلطان. ولما وصلا إلى مصر أمر بيبرس بتأديبهما فاعتقلا بقلعة الجزيرة. ابن واصل: مفرج الكروب ص ٤٠٠ ب.

(٢) كان شارل هذا قد قام بقيادة الحملة الصليبية الثامنة على أثر وفاة قائدها لويس التاسع ملك فرنسا. غير أن القائد الجديد حول غرض الحملة إلى ما تطلبته مصالح مملكته صقلية ، فألزم ملك تونس المستنصر محمد بن يحى بن عبد الوهاب بدفع مبلغ من المال كغرامة حربية وفرض عليه جزية سنوية تدفع إلى خزانة مملكته. ابن أبى الفضائل: كتاب النهج السديد ص ١٢١.

Barker, The Crusades, pp. 87-89.

(٣) المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥١٣.

(٤) Stanly Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 266.

الهدية منهم ثم أعد لهم مركباً أبحروا فيه إلى الإسكندرية فوصلوا إليها فى صفر سنة ٦٧٥ هـ [١] .

٥ — اتساع نفوذ مصر فى بلاد النوبة

كان أهل هذه البلاد خاضعين لسلطان مصر يؤدون إليه الجزية : غير أنهم كثيراً ما كانوا يمتنعون عن دفعها ويشقون عصا الطاعة كلما سنحت لهم الفرص ؛ وقد حدث ذلك فى أواخر عهد الملك الظاهر حيث كان على البلاد رجل إسمه شكندة يؤدى الجزية ويقدم فروض الطاعة لمصر ، فثار عليه ابن أخيه « داود » ووقع بينهما الشقاق والنزاع إلى أن تغلب عليه وانتزع الملك من يده [٢] .

ولما تولى داود عرش بلاد النوبة امتنع عن دفع الجزية السنوية لسلطان مصر وتجاوز حدود مملكته مغيراً على بعض قرى الديار المصرية واستولى على كثير من الأسرى المسلمين بأسوان وعيذاب [٣] .

وعندما لم يقو شكندة على استرداد ملكه من ابن أخيه سار إلى مصر مستنجداً بالملك الظاهر . فانتهز بيبرس هذه الفرصة ليثأر من أهالى بلاد النوبة الذين كانت غزواتهم لا تنقطع من صعيد مصر [٤] : فجهز مع شكندة قوة من الجند بقيادة شمس الدين أقسنقر الفارقانى وعز الدين الأفرم وأمرهما بتسليم البلاد إليه على أن يكون ريعها للملك الظاهر . فغادروا مصر إلى بلاد النوبة سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) ، ولما وصلوا إلى دنقلة خرج إليهم ملكها

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ورقة ٢٢٧

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٦

(٣) Stanly Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 271.

(٤) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 28.

داود على رأس جيش كبير ودارت رحى الحرب بين الفريقين فى جنوبها فهزم جيش النوبة هزيمة منكرة وأسر كثير منهم وبيع السبى بثلاثة دراهم .

أما داود فإنه على أثر هزيمة جيشه عبر النيل إلى البر الغربى . فلما علم بذلك الأفرم والفارقانى ركبا بمن معهما وتابعوا السير جميعاً للقضاء عليه ؛ غير أنه عندما أحس بهم ترك أمه وأخته وابنة أخيه وقصد إلى أحد ملوك بلاد النوبة ، فانتهزوا فرصة غيابه وأسروا أقرباءه ثم عادوا إلى دنقلة وملكوا عليهم شكندة [1]

ولما تم لهم ذلك فرضوا عليه أن يقدم للسلطان فى كل عام عدداً من الفيلة والزرافى والفهود والخيول والأبقار وأن يكون نصف محصول الأرض للسلطان والنصف الآخر لعمارة البلاد وحفظها ؛ ثم عرضوا على أهالى بلاد النوبة الإسلام أو الجزية أو القتل ، فاختاروا الجزية وأن يقوم كل منهم بدفع دينار عيناً . ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كتبوا نسخة من هذه الشروط وحلفوا شكندة عليها [2] ، كما حلفوا أيضاً رعاياه على طاعة

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص٢٣٤ — ٢٣٥ ؛ ابن شاكر الكتبى عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٥١ و ٥٢ .

(١) أورد مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٣٦ — ٢٣٨ ، نص هذا اليمين وقد جاء فيه « والله والله والله وحق الثالوث المقدس والانجيل الطاهر والسيدة الطاهرة العذراء أم النور والمعمودية والأنبياء والرسل الحواريين والقديسين والشهداء والأبرار وألا أجحد المسيح كما جحد يودس وأقول فيه ما تقول اليهود .. أننى أخلصت نيتى وطويتى من وقتى هذا وساعتى هذه لمولانا السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس خلد الله ملكه وأننى أبذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته وأننى ما دمت نائبه لا أقطع ما قرر على فى كل سنة تمضى وهو ما يصل من مشاطرة بلادى على ما كان يتحصل لمن تقدم من الملوك بالنوبة وأن يكون النصف من المتحصل لمولانا السلطان .. والنصف الآخر مرصداً لعمارة البلاد وحفظها من عدو يطرقها وأن يكون على فى كل سنة من الأفيلة ثلاثة ومن الزرافات ثلاثة ومن إناث الفهود خمسة ومن الصهب الجياد مائة ومن الأبقار الجيدة أربعمائة رأس وإننى أقرر على كل نفر من الرعية الذى تحت يدى فى البلاد من العقلاء البالغين ديناراً عيناً وأنه مهما كان لداود ملك النوبة ولأخيه شكندة ولأمه وأقاربه ومن عدم من عسكره بسيوف العسكر المنصور أحمله إلى الأبواب

نائب السلطان [١] . فأين هذا مما صنعه عبد الله بن سعد بن أبى سرح معهم ؟ فإنه عندما لم يستطع التغلب عليهم والاستيلاء على بلادهم سنة ٣١ هـ عقد معهم صلحاً أشبه بمعاهدة تجارية تتعهد فيها مصر بإمدادهم بالحبوب والعدس وتتعهد النوبة بتقديم الرقيق .

ولما فرغ الأميران الأقوم والفارقانى من تمليك شكندة على بلاد النوبة عادا ومن معهما إلى القاهرة ، فخلع عليهما الملك الظاهر وحبس أم داود وأخته وابنة أخيه وأمر بألا يباع من السبى يهودى أو نصرانى وألا يفرق بين المرأة وأولادها [٢] . ولم يلبث بعد ذلك داود أن قبض عليه الملك الذى نزل عنده وسيره إلى الملك الظاهر فى أوائل سنة ٦٧٥ هـ ، فاعتقل بقلعة الجبل [٣].

وهكذا اتسع نفوذ مصر فى بلاد النوبة ، ويقول ميور [٤] فى ذلك : إن هذه هى أول مرة خضعت فيها هذه البلاد خضوعاً حقيقياً للنفوذ الإسلامى رغم الهجمات التى كانت تتوالى عليها من حين لآخر .

٦ — إستعادة مكانة مصر فى بلاد الحجاز

اهتم بيبرس بشئون مكة والمدينة وكان مابين شرفائها من المشاحنات والخلاف أكبر معين له على بسط نفوذه وسيادته على تلك الأصقاع . فلى

العالية وأنى لا أترك شيئاً منه قل ولا جل ولا أخفيه ولا أمكن أحداً من إخفائه ومتى خرجت عن شىء مما قرر على أعلاه كنت بريئاً من المسيح ومن السيدة الطاهرة وأخسر دين النصرانية وأصلى لغير الشرق وأكفر بالصليب وأعتقد ما يعتقدونه كذلك اليهود ، ثم أنى لا أترك أحداً من العربان ببلاد النوبة صغيراً ولا كبيراً ومن وجدته احتطت عليه وأرسلته إلى الأبواب العالية وأنى مهما سمعته من الأخبار الضارة والنافعة طالعت به مولانا السلطان فى وقته وأنى لا أنفرد بشىء من الأشياء وأنى عبد مولانا السلطان عند نعمه وغرس صنائعه وسيفه المنصور وأنا ولى من والاه وعدو من عاداه والله على ما أقول وكيل وشهيد » .

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٢٢

(٢) ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٥٢

(٣) مفضل بن أبى الفضائل . كتاب النهج السديد ص ٢٣٦

(٤) The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 28.

أولا طلب الشريف بدر الدين مالك وقسم إمارة المدينة بينه وبين الأمير جماز، كما انتهز فرصة الخلاف الذى وقع بين أميرى مكة سنة ٦٦٧ هـ واتفق معهما على أن يعطيهما ألف درهم فى كل عام على ألا يأخذا مكوساً من أهالى مكة، وألا يمنع أحد من زيارة بيت الله، وألا يتعرض لتاجر وأن يخطب باسم السلطان فى الحرم والمشاعر وتضرب السكة باسمه [1].

ولما رأى الملك الظاهر أن الأمر استقر له ببلاد الحجاز شرع فى الرحيل إليها فى شهر شوال سنة ٦٦٧ هـ لقضاء مناسك الحج واستصحب معه قاضى القضاة صدر الدين سليمان الحنفى وصاحب ديوان الإنشاء فخر الدين بن لقمان ونحو ثلثمائة مملوك وبعض الأجناد. وعندما وصل إلى المدينة فى أواخر ذى القعدة من هذه السنة زار قبر النبى صلى الله عليه وسلم، ثم سار منها إلى مكة فأدى بها شعائر الحج، ولما فرغ من ذلك علق كسوة [2] بيت الله الحرام بيده وأعطى خواصه مبلغاً كبيراً من المال ليوزعوه على أهالى الحرمين، كما خلع على أكابر رجال الحجاز وأمير ينبع وأميرى مكة وزاد فى المال المقرر لهذين الأميرين ليسهلا للناس الحج إلى بيت الله الحرام؛ وعين نائباً له بمكة تلبية لطلب [3] أميرها. وبذلك استعاد بيبرس ما كان لمصر من نفوذ فى الأراضى المقدسة بالحجاز.

(١) المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٠ و ٥٧٩

(٢) كان بيبرس يرسل إلى الحجاز فى كل عام كسوتين: إحداهما للكعبة، والأخرى لقبر النبى صلى الله عليه وسلم.

(٣) المقريزى: السلوك ص ٥٨٠ — ٥٨٢؛ العينى: عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٤٤١.

الباب الرابع

النظم والحضارة في مصر في عصر الظاهر بيبرس

١ - النظام السياسي والإداري

٢- القضاء

٣- النظام الحربي

٤- الحالة الاقتصادية

٥- منشئات بيبرس

٦- مظاهر الحياة الاجتماعية

٧- الحياة العلمية والأدبية

١ — النظام السياسى والإدارى

لم تشغل بيبرس الحروب الخارجية عن الاهتمام بشئون مصر الداخلية ، فقد وضع أساس النظام السياسى لدولة المماليك ونظم إدارتها وكان صاحب الأمر المطلق فيها إذ لم يكن لديه مجلس نيابى يستشيره بمقتضى دستور أو نظام خاص .

وعلى الرغم من أنه أعاد الخلافة إلى العباسيين فإن الخليفة لم يكن له فى عهده من الأمر شىء اللهم إلا ما كان متعلقاً بالدين وحراسته (١) . وهكذا لم تصبح للخلافة فى عصره أى صبغة سياسية ، كما لم يبق للخليفة أى نفوذ بعد أن كان الناس لا يرون لهم حاكما غيره يجمع فى يده بين السلطتين الروحية والزمنية .

أما عن نظام الحكم فى عصر بيبرس فقدكان ملكياً وكانت السلطة قبل انتقالها إليه لا ينالها إلا أقوى الأمراء نفوذاً وأكثرهم أنصاراً وأشدهم دهاء . فرأى بيبرس بعد أن وطد سلطته فى مصر أن يعمل على حصر وراثة العرش فى أسرته (٢) ، بمعنى أن يكون الحكم فيها ملكياً وراثياً فى أبنائه . وقد مهد لذلك بأن جعل الأمراء يقسمون يمين الطاعة لابنه الملك السعيد سنه ٦٦٠ هـ . ثم لم يلبث بعد ذلك أن ولاه عهد السلطنة عندما وافته الأخبار بقدوم التتار إلى بلاد الشام سنة ٦٦٢ هـ ، لينوب عنه فى مصر أثناء اشتغاله بمحاربتهم ،

---

(١) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. p. 30

(٢) Muir Op. Cit p. 32.

وأقام لذلك احتفالا عظيما زينت فيه القاهرة وتنافس الأمراء وكبار رجال الدولة فى إقامة معالم الزينة تكريماً له فاستبشر بذلك العامة والخاصة وتقرر أن يكون أتابكه عز الدين أيدمر الحلى ، ثم قرئ تفويض[1] عهد السلطنة للملك السعيد على القضاة والفقهاء[2] وقد جاء فيه :

« الحمد لله منمى الغروس ومبهج النفوس .. ونشهد ألا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة عبد كثر الله عدده وعدده .. ونصلى على سيدنا محمد الذى أطلع الله به نجم الهدى وألبس المشركين به أردية الردى .. كانت شجرتنا المباركة قد امتد منها فرع تفرسنا فيه الزيادة والنمو وتوسمنا منه حسن الجنا المرجو ورأينا أنه الهلال الذى أخذ فى ترقى منازل السعود إلى الأبدار وأنه سرنا الذى صادف مكان الاختيار له حسن الإختيار . أردنا أن ننصبه فى منصب أحلنا الله فسيح غرفه ونشرفه بما خولنا الله من شرفه وأن تكون يدنا ويده تقتطفان من ثمره .. جعل الله مطلع سعده بالإشراف محفوفاً وأرى الأمة من ميامنه مايدفع للدهر صرفاً ويحسن بالتدبير تصريفاً بولاية العهد الشريف على قرب البلاد وبعدها وغورها ونجـــدها وعساكرها وجندها وقلاعها وثغورها وبرورها وبحورها وولاياتها وأقطارها ومدنها وأمصارها وسهلها وجبلها .. وما ينسب للدولة القاهرة من يمن وحجاز ومصر وغرب وسواحل وشام وغير شام .. ومن يسكنها من حقير وجليل .. وجعلنا يده فى ذلك كله المبسوطة وطاعته المشروطة ونواميسه المضبوطة ، ولا تدبير ملك كلى إلا بنا أو بولدنا يعمل ، ولا سيف ولا رزق إلا بأمرنا هذا يسل وهذا

---

(١) يفهم مما ذكره النويرى ج ٢٨ القسم الأول ورقة ١٦٠ ، أن بيبرس لم يكتف بهذا التفويض بل دعا الأمراء فى صفر سنة ٦٦٧ هـ ليقسموا يمين الطاعـة للملك السعيد ، ولما تم له ذلك جدد تفويض عهد السلطنة إليه .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٦٨ و ٥١٥ — ٥١٦

يسأل ، ولا دست سلطنة إلا بأحدنا يتوضح منه الإشراق ، ولاغصن قلم فى روض أمر ونهى إلا ولدينا ولديه تمدله الأوراق ، ولامنبر خطيب إلا باسمينا يمس ولا وجه درهم ولادينار إلا بنا يشرق ويكاد تبرجاً لابهرجاً يتطلع من خلال الكيس . فليتقلد الولد ماقلدناه من أمور العباد ، وليشركنا فيما نباشره من مصالح الثغور والقلاع والبلاد .. والله لا يعدمنا منه إشفاقا وبراً ويجعله أبداً للأمة سنداً وذخراً[١] » .

على أن نظام وراثة العرش لم يكن مألوفاً عند المماليك : فقدكانوا يعتقدون أنه لا فضل لأحد على الآخر إلا بالمهارة الحربية وكثرة الأتباع والحذق فى تدبير المؤامرات . وفى أغلب الأحوال كان يرث التاج ابن السلطان وهو طفل لم يبلغ الحلم فلا يلبث أن يخلعه أتابكه[٢] كما فعل الملك المظفر قطز مع الملك المنصور نور الدين على بن المعز أيبك[٣] . وقد فطن بيبرس لذلك عندما أحس بالموت فكتب وصية لإبنـــه الملك السعيد يحذره فيها من الأمراء المحيطين به . ومنها « إنك صبي وهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبي . فمن بلغك عنه مايشوش عليك ملكك وتحققت ذلك عنه فأضرب عنقه فى وقته ولا تعتقله ولا تستشر أحداً فى هذا وافعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك[٤] » .

وقد تحقق ما كان يخشاه بيبرس فإنه على أثر تولية ابنه الملك السعيد أخذ

---

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٨١ و ٨٥

(٢) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 219. — أتابك : معناها مربي الأمير . وأول من لقب بهذا اللقب نظام الدولة وزير ملكشاه بن الب أرخسلان السلجوقى حين فوض إليه ملكشاه تدبير المملكة سنة ٤٦٥ هـ . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ ؛ وقد تحول هذا اللقب إلى لقب عسكرى فى عصر المماليك فأصبح يطلق على القائد العام للجيوش .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤١٧

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ج ٢ ص ٤٤٠ .

الأمراء يعملون على تقويض سلطته حتى اضطر أخيراً إلى النزول عن العرش بعد أن ظل فى الحكم أكثر من سنتين[١] .

ولما نزل الملك السعيد عن العرش اتفق الأمراء على تولية الأمير قلاوون سلطنة مصر فامتنع وقال «أنا ما خلعت الملك السعيد طمعاً فى السلطنة والأولى ألا يخرج الأمر عن ذرية الملك الظاهر[٢]» .

على أن الأمير قلاوون لم يقصد بامتناعه عن تولية سلطنة مصر إحترام مبدأ وراثة العرش، ولكنه كان يرمى من وراء ذلك إلى إتاحة الفرصة له حتى يستطيع إخماد نار الفتنة التى أشعلها الظاهرية أنصار الظاهر بيبرس الذين كانوا يكونون أغلبية الجيش ، وإبعاد الأمراء الموالين لأسرة بيبرس عن مناصب الدولة . وقد لاقى قوله قبولا لدى الأمراء فولوا سيف الدين سلامش بن بيبرس سلطنة مصر — وله من العمر سبع سنين — ولقب بالملك العادل ، وعينوا الأمير قلاوون أتابكاله ؛ فقبض قلاوون على زمام الأمور فى البلاد وانتهز فرصة صغر سن سيف الدين سلامش وأخذ يعمل على خلعه ليحل محله فى عرش مصر فقبض على الأمراء الظاهرية واستمال إلى جانبه المماليك الصالحية موالى الملك الصالح أيوب فمنحهم الإقطاعات وولاهم بعض الولايات .

ولما اطمأن بال قلاوون من ناحية مناوئيه جمع أمراءه وتحدث معهم فى صغر سن الملك العادل وقال لهم : «قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل» فاتفقوا على خلع سلامش وبعثوا به إلى الكرك وعينوا الأمير قلاوون سلطاناً على مصر[٣] .

وهكذا انتقلت السلطة من بيت بيبرس إلى بيت قلاوون . وهذا يثبت

Sir William Muir. Op. Cit. p. 33. (١)

(٢) المقريزى : السلوك ص ٦٠٦

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٥٧ — ٣٥٨

لنا أن مبدأ وراثة العرش لم يكن مقبولا لدى أمراء المماليك . فقد حتمت عليهم نشأتهم أن تكون مؤهـــلات السلطنة عندهم المهارة الحربية وكثرة الأتباع .

وقد استعان بيبرس فى إدارة شئون دولته بالأمراء المقربين إليه فولاهم أرقى المناصب ، كما أنه أحيى وظيفة نائب السلطان التى ابتدعوها فى عهد الدولة الأيوبية وذلك لكثرة تغيبه عن مصر ولرغبته فى أن ينوب عنه بها أثناء اشتغاله بالحروب الخارجية أحد كبار رجال دولته . فكان هذا النائب يقوم مقام السلطان أثناء غيابه ويشترك معه فى توزيع الإقطاعات وترشيح الأكفاء لمناصب الدولة . ولاتساع سلطته سمى « كافل الممالك والسلطان الثانى »[1] .

كذلك اتخذ بيبرس وزيراً له ؛ وكان يستشيره فى أمور الدولة ، كما كان واسطة بينه وبين الرعية ، وكان عليه تنفيذ رغبات السلطان وأوامره وإسداء النصح والإرشاد له اذا ما استأنس برأيه فى أمر من أمور الدولة؛ غير أنه لم يكن يتمتع بكامل سلطته لقيام النائب مقام السلطان أثناء غيابه[2] ولتدخله فى تعيين كبار موظفى الدولة . وقد تولى الوزارة فى عهده الصاحب بهاء الدين بن حنا ؛ وكانت له منزلة سامية يدلنا على ذلك تلك الرسالة التى خاطبه بها محيى الدين بن عبد الظاهر عندما كان مع بيبرس فى قيسارية سنة ٦٧٥ هـ ، فقد وجه إليه عبارات تدل على ما كان لهذا الوزير من مقام لم يرتفع إليه غيره ومنزلة لم يسم إليها سواه . وقد تكفل صاحب صبح الأعشى بذكر هذه الرسالة[3] .

وكان يرافق السلطان فى أسفاره وحروبه وزير آخر يعرف باسم وزير الصحبة وذلك ليتسنى للوزير الأصلى أن يقيم بالقاهرة مقر عمله .

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٤

(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٢٣

(٣) القلقشندى : ج ١٤ ص ١٣٩ — ١٦٥ .

وقد ظلت الوزارة قائمة فى ذلك العصر حتى ولى الناصر محمد بن قلاوون سلطنة مصر فلم يتخذ له وزيراً واعتمد على « ناظر الدولة » فى إدارة شئون البلاد . وكانت رتبته تلى رتبة الوزارة ويعاونه فى عمله كثير من الموظفين يعرفون بالمستوفين، ولهؤلاء رئيس يسمى « مستوفى الصحبة » وكانت مهمته إعداد المراسيم الخاصة بتنظيم شئون الدولة وتعيين صغار الموظفين[1] .

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد ألغى الناصر وظيفة نائب السلطان واضطلع بما كان يقوم به النائب والوزير ، كما استحدث وظيفة « ناظر الخاص » وكانت مهمة القائم بأعبائها فى أول الأمر مقصورة على إدارة أموال السلطان غير أنه لم يلبث أن ازداد نفوذه لكثرة تقربه من السلطان فأصبح يتدخل فى أموره الخاصة[2] .

مما تقدم نرى كيف أن سلاطين المماليك فى ذلك العصر لم يعنوا بأن يتخذوا لهم وزراء يعاونونهم فى إدارة شئون الدولة كما كانت الحال فى عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية : فأضعفوا أولا من نفوذهم ثم استبدلوا بهم بعض كبار الموظفين : فأصبح كل من « ناظر الدولة » و « ناظر الخاص » يقوم بمهام الوزارة . ولعلهم عمدوا إلى ذلك خشية أن يزداد نفوذ الوزراء فيعملون على تقويض سلطتهم وخلعهم من عروشهم كما كانت الحال فى أواخر عهد الدولتين العباسية والفاطمية .

وقد ملأ بيبرس بلاطه بكثير من الموظفين نخص بالذكر منهم « الحاجب » وكانت مهمته إدخال الناس على السلطان حسبما تقضى الضرورة بالسماح لهم بالمثول بين يديه مراعياً فى ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم ، ولم تقف مهمته عند هذا الحد بل كان يفصل فيما يحدث بين الأمراء والجنود ، وذلك بعد استشارة السلطان أو نائبه ، ثم أخذت سلطته تتسع تدريجياً حتى أصبح

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٢٤

(٢) السيوطى حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٤

يقضى بين المغول الذين استوطنوا مصر[١] طبقاً لأحكام الياسة التى وضعها جنكز خان[٢] .

وهناك موظفون آخرون يلون الحاجب فى المكانة وهم « الإستادار » و « الدوادار » و « الأمير جاندار » . وكان يعهد إلى الأول إدارة البيوت السطانية ، ويبلغ الثانى الرسائل للسلطان ويقدم إليه المنشورات للتوقيع عليها أما الثالث فمهمته الوقوف على باب السلطان واستئذانه فى استقبال كبار رجال الدولة وأعيانها[٣] .

وقد أحدث بيبرس إلى جانب ذلك وظائف أخرى منها « رأس نوبة الأمراء » و « أمير المجلس » و « أمير السلاح » . وكان يتولى الأول الرئاسة على أمراء الدولة ، ويعهد إليه بمحاكمة المماليك السلطانية . أما «أمير المجلس» فكانت مهمته حراسة السلطان ؛ وازداد قربه منه حتى أصبح يحرسه فى داخل قصره بل وفى حجرة نومه . واختص « أمير السلاح » بالإشراف على مخازن الأسلحة ومعدات الحرب[٤] .

(١) كان هؤلاء المغول على الرغم من استيطانهم بمصر واعتناقهم الدين الاسلامى لا يزالون متأثرين بأحكام الياسة ، وقد أظهروا رغبتهم فى العودة إلى اتباعها ، وفى ذلك يقول المقريزى: خطط ج ٢ ص ٢٢١ « ... واحتاجوا (المغول) فى ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكزخان والاقتداء بحكم الياسة ، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عوايدهم (كذا فى الأصل) والأخذ على يد قويهم وإنصاف الضعيف منه على مقتضى ما فى الياسة » .

(٢) كان جنكزخان قد وضع بعض تشريعاته للمغول وأثبتها فى كتاب سماه « ياسة » . ومن أهم ما جاء فيه أنه نص على قتل من يزنى ومن يتعمد الكذب ومن يتجسس ومن يتدخل بين اثنين يتخاصمان ويعين أحدهما على الآخر ، ومن يبول فى الماء أو على الرماد أو من يعطى بضاعة ويخسر فيها ، ومن يطعم أسير قوم أو يكسوه بغير إذنهم ، ومن يجد عبداً هارباً أو أسيراً ولا يرده ، ومن يقع قوسه أثناء القتال ، ومن يتردد من الأمراء على أى فرد من الأفراد خلاف الملك . وفضلا عن ذلك فإنه قرر ألا يكون على أحد من ولد على بن أبى طالب مؤونة ولا كلفة ، وألزم أفراد رعيته باحترام جميع الملل والمذاهب . المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٢٠ — ٢٢١

(٣) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٢٢ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص [illegible]

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص [illegible]

وكان للسلطان ولاة ينوبون عنه فى إدارة شئون الدولة المصرية ومهمتهم تنفيذ الأوامر الصادرة منه وجمع الخراج والرسوم الجمركية. وكانت الأسكندرية[١] أعظم الولايات شأناً فى ذلك العصر لأهميتها التجارية، وكذلك ثغر عيذاب أحد ثغور مصر على البحر الأحمر وكانت تمر به تجارة الشرق. وكان الوجه القبلى مقسما إلى عدة ولايات؛ ومن أهم ولاياته: قوص والأشمونين والبهنسا والجيزة. أما الوجه البحرى فأهم ولاياته بلبيس ومنوف والمحلة الكبرى ودمنهور وقليوب ودمياط[٢].

ومن الوظائف الهامة التى ظهرت فى هذا العصر وظيفة «الولاية» وهى تقابل ما يعرف فى العصر الإسلامى الأول بالشرطة[٣]. ومهمة صاحبها حفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين وما إلى ذلك من الأعمال الإدارية التى تكفل سلامة الجمهور.

وكان يقوم بأعباء هذه الوظيفة فى عصر بيبرس ثلاثة أمراء، يتولى أحدهم المحافظة على الأمن بالقاهرة وفض المشاكل التى تحدث بين سكانها ويعهد إلى الثانى بأداء مثل هذا العمل بالفسطاط. أما الثالث فكان يلى شئون القرافة[٤]. ولعله كان يحفظ النظام أثناء مرور الجنازات ويراعى الآداب العامة فى زيارات القبور وخاصة أيام المواسم والأعياد، كما كان يقوم بحراسة القبور خشية أن يعبث بها اللصوص: وإلا فليس من المعقول أن يتساوى والى القرافة مع والى كل من الفسطاط والقاهرة إن لم يكن فى القرافة عمل يساوى عملهما.

---

(١) كان يطلق على الأسكندرية فى عهد الظاهر بيبرس ولاية الأسكندرية، ثم أطلق عليها نيابة الأسكندرية فى أيام الظاهر برقوق. وكان فى عهده ثلاث نيابات: نيابة الأسكندرية ونيابة الوجه القبلى، ونيابة الوجه البحرى. القلقشندى: شرحه ج ٤ ص ٢٤ — ٢٥

(٢) القلقشندى: شرحه ج ٤ ص ٢٦ — ٢٨

(٣) المقريزى: خطط ج ٢ ص ٢٢٣

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٣

وكان « صاحب العسس » بالقاهرة يتولى الإشراف على مطافىء الحريق بها ، فيجلس بعد صلاة العشاء أحياناً بمحطة المطافىء التى اتخذها المماليك بسوق الجلون الكبير بالقرب من حارة الجدرية بالغورية . وكان يوضع أمامه مشعل يشعل بالنار طول الليل ، ومعه السقاءون والنجارون وغيرهم من العمال خشية حدوث الحريق بالليل فيبادرون إلى إطفائه[1] .

ديوان الإنشاء — وجه بيبرس عنايته إلى ديوان الإنشاء لكثرة المحالفات والمعاهدات التى عقدها مع الملوك والأمراء المعاصرين له وما ترتب على ذلك من تبادل الرسائل بينه وبينهم .

وكان هذا الديوان يتكون من طبقتين من الكتاب ؛ تعرف الطبقة الأولى منهم بكتاب الدست[2] ، ومهمتهم قراءة القصص على السلطان بعد أن يفرغ من قراءتها رئيس الديوان ، وذلك حسب ترتيب جلوسهم بدار العدل وكانوا فى عهد الملك الظاهر ثلاثة أرفعهم قدراً محي الدين بن عبد الظاهر . أما الطبقة الثانية فتعرف بكتاب الدرج[3] ؛ وهؤلاء كانوا يقومون بكتابة ما يدونه صاحب الإنشاء وكتاب الدست على القصص وغير ذلك من المكاتبات والمراسيم[4] . وكان عددهم يزداد كلما ازداد كتاب الدست .

وقد تولى رئاسة ديوان الإنشاء فى أيام الملك الظاهر فخر الدين بن لقمان[5] وهو من الكتاب الذين اشتهروا بسعة الإطلاع فى الأدب وامتازوا بالمقدرة

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٠٣
(٢) سموا بذلك لجلوسهم للكتابة بين يدى السلطان
(٣) عرف هؤلاء الكتاب بهذا الاسم لكتابتهم الرسائل والمنشورات على ورق مستطيل مركب من عدة أوصال .
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٨
(٥) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣

فى فن الإنشاء . وكانت مهمته تسلم المكاتبات الواردة وعرضها على السلطان لبحثها واعتمادها ثم كتابة أجوبتها[١] .

وكان رئيس هذا الديوان يلقب إلى ذلك الوقت بصاحب ديوان الإنشاء ؛ غير أن هذا اللقب لم يلبث أن تغير عندما ولى الديوان القاضى فتح الدين ابن القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر فى أيام المنصور قلاوون : فلقب بكاتب السر ، وصار منذ ذلك الوقت يلقب بهذا اللقب كل من ولى ديوان الإنشاء[٢] .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الديوان فى ذلك العصر كان يقوم مقام وزارة الخارجية فى الوقت الحاضر ، إذ كانت ترد إليه المكاتبات من جميع أنحاء الولايات والممالك التى كان بينها وبين مصر بعض العلاقات ، كما كانت تحرر به الكتب التى يرسلها السلطان إلى حلفائه . وقد ازداد نشاطه فى أيام الملك الظاهر لكثرة المراسلات التى تبودلت بينه وبين الملوك الشرقيين والغربيين المعاصرين له .

البريد — تنبه بيبرس إلى منفعة البريد فوضع له نظاماً ارتبطت بمقتضاه جميع أنحاء مملكته بشبكة خطوط من البريد البرى والجوى . وكان مركز هذه الشبكة قلعة الجبل[٣] ؛ ومنها تتفرع سائر الخطوط وتصدر المراسيم السلطانية إلى أنحاء إمبراطوريته ، وإليها ترد الرسائل من الحكام والتقارير من ولاة الأقطار بانتظام حتى أصبح البريد فى عهده يرد على مصر مرتين فى الأسبوع ؛ ولم يتأت ذلك إلا بعد أن أنفق بيبرس أموالا ضخمة فى سبيل ترتيبه[٤] .

وقد زود بيبرس مراكز البريد بكل مايحتاج إليه المسافر من زاد وعلف

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٢٦

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ١٠٤

(٣) كان يتفرع من قلعة الجبل أربعة طرق برية يمتد إحداها إلى قوص وآخر إلى عيذاب وثالث إلى الأسكندرية ورابع إلى دمياط ومنها إلى غزة . القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ . ص ٣٧٣

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٦ — ٤٤٧

كما راعى فيها توفر المياه أو وجود قرية بجورها يستأنس بها عمال البريد [١]، وأعد بكل منها خيولا لايسمح بركوبها إلا بمرسوم سلطانى [٢] .

وكان يشرف على إدارة البريد صاحب ديوان الإنشاء ؛ فقد عهد إليه حفظ ألواح البريد[٣] بالديوان ، فإذا خرج بريدى إلى جهة من الجهات أعطى لوحاً من تلك الألواح ليعلقه بعنقه فى ذهابه وإيابه[٤].

وكان البريديون ينتخبون عادة من خدم السلطان ذوى الكفاية والذكاء لإبلاغ الرسائل الشفوية عند الإقتضاء ؛ وكانت لهم مكانة محترمة .

ولم يقتصر بيبرس على البريد العادى فى إرسال رسائله بل استخدم الحمام الزاجل : وكان له أبراج بالقلعة ومراكز معينة فى جهات مختلفة كمراكز البريد البرى ، لكنها تزيد عنها فى المسافة . فإذا نزل بها الحمام ينقل البراج ما على جناحه إلى طائر آخر ليوصله إلى المنزلة التى تليها [٥] .

وكان الإيجاز من أهم مميزات الرسائل التى ينقلها الحمام الزاجل : فكان يستغنى فيها عن البسملة والمقدمات الطويلة والألقاب الكثيرة مما كانت تحتفل به الرسائل فى ذلك العصر ، ويكتفى فقط بذكر التاريخ والساعة وإيراد المطلوب فى صيغة مقتضبة كالتى تستعمل فى البرقيات فى وقتنا هذا .

وكانت الرسالة تشد تحت جناح الحمامة أو إلى ذيلها . وقد جرت العادة لزيادة الاطمئنان والثقه أن تكتب الرسالة من صورتين ترسلان مع

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٧١

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ١ ص ١٠٨

(٣) كانت هذه الألواح من الفضة وقد نقش على أحد وجهى كل لوح منها عبارة « لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . ضرب بالقاهرة المحروسة » . وعلى الوجه الآخر : عز لمولانا السلطان ... سلطان الاسلام والمسلمين » .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى : ج ١٤ ص ٣٧١

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٩١

حمامتين تطلق إحداهما بعد ساعتين من إطلاق الأخرى، حتى إذا ضلت إحداهما أو قتلت أو افترسها الجوارح، أمكن الاعتماد على وصول الأخرى. وقد جرت العادة أيضاً ألا يطلق الحمام فى الجو الممطر ولا قبل تغذيته الغذاء الكافى(١).

وكان حمام البريد السلطانى يميز بعلامات خاصة كبصم منقاره ببصمات خاصة أو قص ريشه بطرق معروفة : فإذا وصل إلى قلعة الجبل ببطاقة تولى السلطان قطعها بنفسه(٢). وهذا يدل على مبلغ اهتمام بيبرس وحرصه على الوقوف على كل ما يتجدد فى أنحاء إمبراطوريته فيأخذ حذره ويستعد للطوارىء.

٢ — القضاء

حرص بيبرس على إقامة العدل بين رعاياه ومعاملتهم بالمساواة؛ فتولى بنفسه النظر فى المظالم وأقام لذلك دار العدل التى كان يتولى رئاستها ويجلس بها للفصل فى قضايا رعيته فى يومى الإثنين والخميس من كل أسبوع، وحوله قضاته الأربعة الذين كانوا يمثلون أئمة الاجتهاد، وكبار موظفيه الماليين والإداريين وصاحب ديوان الإنشاء(٣).

وكان قاضى القضاة فى مصر عندما تولى بيبرس العرش بدر الدين السنجارى، فعزله الملك الظاهر فى سنة ٦٥٩ هـ وفوض قضاء القضاة بديار مصر لتاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز(٤)، وكتب له بذلك تقليداً جاء

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٣١ — ٢٣٢ ؛ تاريخ البريد فى مصر (مصلحة البريد) ص ٤٣ — ٤٤

(٢) المقريزى : خطط ج٢ ص٢٣١ ؛ Stanley Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 246

(٣) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٠٨ — ٢٠٩

(٤) ولد تاج الدين سنة ٦٠٤ هـ ببلدة دميرة بمديرية الغربية. ومات أبوه وهو صغير

فيه «... رسم بالأمر العالى المولوى السلطانى الملكى الظاهرى الركنى زاد الله فى علائه . . أن نفوض إليه الحكم العزيز بجميع الديار المصرية المحروسة لما علم فيه من فضل ما زالت ثماره تجنى ومساع حميدة ما برح به إلى الخلائق محسناً . . . فليباشر هذا المنصب الذى أضحى ظل شرفه وارفاً . . وليول من القضاة من يحيى من الحق سنناً ويميت (ويمت فى الأصل) من الباطل بدعاً . . وليتفقد أمر العدول الذين أصبحوا على الحقيقة عدولا من المنهج القويم راغبين عن المحامد بما يأتونه من كل وصف دميم . ولا يترك منهم إلا شاهداً كان على (المعايب) غائباً أو متورعاً . . . وأموال الأيتام والأوقاف فلا يباشرها إلا من كان لمباشرتها أهلا ومن يتحقق أن يكون عليها قفلا . . ورعينا بك حق الرعية ، فلا تخل أمورهم من مراعاتها . وأمض عزيمتك فى إقامة منار الشريعة بعد القعود . . وقد قررنا لك من الجامكية والجراية ما كان مقرراً لمن تقدمك ، وهو فى كل شهر أربعون ديناراً وخمسة وعشرون أردباً غلة نصفين[1] . . . » .

على أن تاج الدين لم يظل منفرداً بالقضاء فى مصر بل أشرك معه السلطان فى هذه السنة برهان الدين السنجارى . وصار الأول مختصاً بقضاء القاهرة والوجه البحرى ؛ أما الثانى فاختص بالنظر فى قضاء مصر والوجه القبلى . ولم

= وذى القعدة سنة ٦١٢ هـ ؛ فربى فى حجر جده لأمه الصاحب الأعز فخر الدين مقدام . ولما بلغ أشده درس القرآن والحديث وتعلم الحساب بالاسكندرية فمهر فيه لفرط ذكائه ؛ فولاه الملك الكامل شاهداً لبيت المال وظل فى وظيفته هذه حتى تولى عرش مصر الملك الصالح أيوب فولاه نظر الدواوين ، ثم تولى قضاء مصر سنة ٦٥٤ هـ بعد عزل بدر الدين السنجارى . ولم يلبث أن عزل تاج الدين وأعيد بدر الدين إلى القضاء وولى ابن بنت الأعز الوزارة فى ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ ، ثم عزله الملك المظفر قطز فى نفس هذه السنة ، وظل بعيداً عن مناصب الدولة حتى أعاده الملك الظاهر بيبرس إلى القضاء فى عاشر جمادى الأول سنة ٦٥٩ هـ ، وظل يتولى القضاء فى مصر إلى أن عاجلته منيته فى الثامن والعشرين من شهر رجب سنة ٦٦٥ هـ .
ابن حجر العسقلانى : رفع الأصر عن قضاة مصر ورقة ١٧٦ — ١٧٨

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ص ٨ — ١٢

يمض على ذلك وقت طويل حتى عزل الملك الظاهر برهان الدين سنة ٦٦٠ هـ وقلد تاج الدين القضاء بديار مصر كلها [١] .

وفى سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) أدخل بيبرس تعديلا جوهرياً على النظام القضائى بمصر ؛ فبعد أن كان يتولى القضاء قاض واحد ، عين أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة [٢] . ويرجع السبب فى ذلك إلى تعنت تاج الدين وتشدده فى أحكامه : فقد حدث أن استشاره السلطان فى قضية رفعت إليه بدار العدل من بيت الملك الناصر تتضمن أنهم ابتاعوا داراً من القاضى بدر الدين السنجارى ، وأن ورثته ادعوا بعد وفاته أنه موقوف . فأجاب القاضى بأنه إذاثبتت الوقفية يستعاد الثمن من تركة البائع ، فقال السلطان : فإن عجزوا عن الثمن ؟ قال . يظل الوقف على أصله ، فامتعض بيبرس منه . وفى هذه الأثناء قدم رسول صاحب المدينة المنورة وقال : يامولانا السلطان ! سألت هذا القاضى أن يسلم إلى المال الذى تحت يده من الوقف لأنفقه فى فقراء المدينة فلم يفعل ؛ فسأل السلطان القاضى عن ذلك ، فقال القاضى : صدق هذا الرجل ، أنا لاأعرفه ولا أسلم المال إلا لمن أعرفه .. فإن سلمه السلطان أحضرته بين يديه . فقال السلطان : تخرجه من عنقك وتجعله فى عنقى لاتسلم المال إلا لمن نختاره ونرضاه . ثم تقدم بعض الأمراء وقال : شهدت عنه القاضى فلم تسمع شهادتى فى ثبوت الملك وصحته ، فسأل السلطان القاضى عن ذلك ؟ فقال : ماشهد أحد عندى حتى أثبته ، فقال الأمير إذا لم تسمع قولى فمن تريد ؟ . قال السلطان : لم لم تسمع قوله ؟ . فقال . لاحاجة فى ذكر ذلك . فقام الأمير جمال الدين أيدغدى وقال : نحن نترك مذهب الشافعى لك ويولى السلطان من كل مذهب قاض ؛ فوافقه بيبرس على ذلك وأقر

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٦٥ و ٤٧٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٩٩ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٥ ؛ Stenly Lane-Poole, p. 274.

القاضى تاج الدين بن بنت الأعزاء فى قضاء الشافعية، وولى الشيخ شرف الدين أبا حفص عمر بن صالح السبكى قضاء المالكية، والقاضى بدر الدين بن سليمان قضاء الحنفية، والقاضى شمس الدين محمد بن الشيخ عماد الدين إبراهيم القدسى قضاء الحنابلة، وكتب لكل منهم تقليداً وأجازلهم أن يولوا نواباً عنهم بأنحاء الديار المصرية[1]، وأضاف إلى اختصاصات القاضى تاج الدين النظر فى ديوان الأحباس وأموال الأيتام والورثة. وعلى الرغم من أن سلطة هذا القاضى ضعفت بعض الشىء على أثر هذا النظام الجديد الذى وضعه الملك الظاهر، فإن بقية القضاة ظلوا يترددون عليه ويعظمونه ولا يتكلم أحدمنهم فى مجلس السلطان غيره[2].

وكان بمصر إلى جانب هؤلاء القضاة قاض آخر للعسكر يحضر بدار العدل مع القضاة الأربعة ويسافر مع السلطان أنى سافر. وكانت مرتبته فى الجلوس بدار العدل بالقرب من السلطان دون مرتبة قضاة المذاهب[3].

٣ — النظام الحربى

الجيش — تغيرت حال الجيش المصرى أيام المماليك وخاصة فى عهد بيبرس عما كانت عليه فى أيام الدولة الأيوبية. فقد اتخذ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب جيشاً من الأكراد ظل عدة الدولة الأيوبية[4] حتى جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب فاقتنى عدداً كبيراً من المماليك كان معظمهم من الأتراك[5]. ويرجع السبب فى ذلك إلى المنافسة التى قامت على الملك بينه

---

(١) النويرى: نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الاول ورقة ١١٥ — ١١٧، المقريزى: السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٣٨ — ٥٤٠

(٢) ابن حجر العسقلانى: رفع الاصر عن قضاة مصر ورقة ١٨١

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ ص ٧٠

(٥) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 243.

وبين أخيه العادل الذى كان يرى أنه أولى منه بالملك ، فقبض عليه العادل وحبسه بقلعة الكرك ، فتفرق عنه جيشه الكردى ، ولم يبق معه غير مماليكه وكانوا نحو الثمانين وطائفة من خواصه تبلغ العشرين ، وأقاموا بالكرك حتى أطلق سراحه . فلما تولى الملك بعد أخيه العادل رعى لهم ثباتهم معه حين تفرق عنه الأكراد ، فاستكثر من شرائهم[1] ، وبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة جهزها بكثير من الأسلحة والآلات الحربية وغير ذلك من الأزواد والأقوات كما أنشأ بها جامعاً وستين برجاً . وعندما تم بناؤه انتقل إليها بحريمه وأهله ، واتخذها داراً للملك وأسكن فيها مماليكه البحرية .

وقد ظلت قلعة الروضة عامرة بالمماليك حتى زالت دولة بنى أيوب وتولى المعز أيبك سلطنة مصر ، فأمر بهدمها ونقل جميع من بها إلى قلعة الجبل وظل الحال على ذلك حتى ولى الظاهر بيبرس عرش مصر ، فاهتم بعمارة قلعة الروضة وإعادتها إلى ما كانت عليه فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولما تم بناؤها أسكن الأمراء فى أبراجها[2] .

ولما ولى المنصور قلاوون سلطنة مصر (٦٨٧ — ٦٨٩هـ) [١٢٨٠ — ١٢٩٠ م] ، نقل المماليك إلى قلعة الجبل . وما زال يعنى بشئونهم حتى إنه كان يتذوق طعامهم بنفسه فى كل يوم . ولم يكن يسمح لهم بمغادرة القلعة ليلا ولا نهاراً إلى أن ولى الأشرف خليل بن قلاوون السلطنة (٦٨٩ — ٦٩٣ هـ) [١٢٩٠ — ١٢٩٣ م] ، فسمح لهم بالخروج منها نهاراً ومنعهم من المبيت خارجها . ثم بنى الناصر محمد بن قلاوون فيما بعد الطباق بساحة الإيوان بقلعة الجبل وجعلها مقراً للمماليك السلطانية ، وسمح لسائر المماليك بالخروج مرة فى

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٣٦

(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٨١ — ١٨٣ ، السيوطى . حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٠٠ — ٢٠٣ .

الأسبوع إلى الحمام ؛ فكانوا يتناوبون ذلك مع الخدام ثم يعودون إلى القلعة آخر النهار[١].

وقد وجه بيبرس عنايته إلى إعداد جيش قوى يكون عدته وقت الحروب فأخذ يستكثر من شراء المماليك الذين يصلحون لهذه المهمة الخطيرة التى كانت تتطلبها البلاد فى ذلك العصر وهى محاربة أعدائه من الصليبيين والمغول ، كما عنى بتربيتهم تربية دينية وعسكرية بأن عين لكل طائفة منهم فقيهاً يعلمهم القرآن ومبادىء الدين والقراءة والكتابة حتى يصلوا إلى سن البلوغ ، ثم يمرنوا بعد ذلك على الأعمال الحربية ، فإذا ماأتموا تعليمهم ألحقوا بجيش السلطان[٢].

وكان هذا الجيش يتكون من المماليك السلطانية وجنود الحلقة . ولكل من هاتين الطائفتين مرتبة لاتتجاوزها إلى غيرها : فالمماليك السلطانية هم أعظم الأجناد شأناً وأرفعهم قدراً وأقربهم إلى السلطان ،ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة . أما جنود الحلقة فكان لكل أربعين جندياً منهم رئيس لاحكم له إلا إذا خرجوا للقتال ؛ فعليه ترتيبهم فى مواقفهم وليس له أن يخرج أحدهم من الخدمة إلا بإذن السلطان أو نائبه[٣] .

وكان جنود هاتين الطبقتين يلبسون على رؤسهم الكلوتات[٤] الصفراء بغير عمامة ، كما كانوا يلبسون على أبدانهم أقبية بيضاء ضيقة الأكمام من القطن البعلبكى — وفى بعض الأحيان تكون حمراء أوزرقاء — ويشدون على أوساطهم بنوداً من القطن[٥] .

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢١٣ .
(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢١٣ — ٢١٤
(٣) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٤ ص ١٤ — ١٥
(٤) وهى أغطية للرأس تلبس وحدها أو بعمامة
(٥) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٩٨

أما عن الأسلحة التي كانوا يستعملونها في حروبهم فمنها السيف والرمح والقوس والنشاب . وهناك أدوات حربية استعان بها الملك الظاهر فى حروبه ضد الصليبيين والتتار : نخص بالذكر منها المجانيق والدبابات ذوات العجل والزحافات والقطاطيع التي كان يهدم بها أسوار القلاع التي يستولى عليها[١].

ولم تكن هناك مرتبات ثابته لهؤلاء الأمراء والأجناد ، بل استعيض عن ذلك بإقطاعات كان يمنحها السلطان لهم . وكان المقطع منهم يحل فى الإقطاع محل السلطان ليتمتع بغلاته وإيراداته ، ثم يؤول جميعه إلى السلطان بمجرد انتهاء مدة الإقطاع المتفق عليها أو بسبب وفاة المقطع .

على أن بيبرس كثيراً ما كان يكافىء أمراءه وجنوده الأوفياء بأن ينزل لورثتهم عن حقه فى إقطاعاتهم . ولا أدل على ذلك مما فعله بعد وفاة الأمير شهاب الدين القيمرى نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية ببلاد الشام وعندما أسر الفرنجة الأمير شجاع الدين والى سرمين[٢]: فإنه أعطى ابن الأول إقطاعه وأبقى إقطاع الثانى بين إخوته وغلمانه[٣] .

ولم تكن هذه الإقطاعات هى الشيء الوحيد الذى كان يمنحه السلطان لأمرائه وأجناده ، بل كان لهم نصيب معين فى الغنائم ، كما كان لهم رواتب أخرى من اللحم والتوابل والعليق والزيت لا علاقة لها بالإقطاع ؛ فهى هبة من السلطان ، وكانت تصرف فى بعض الأحيان لمن لا إقطاع له من أولاد الأمراء[٤] .

البحرية — لم تقف مجهودات بيبرس الحربية عند حد اهتمامه بتكوين هذا الجيش ، بل رأى على أثر استقرار ملكه بمصر أنه فى حاجة ماسة إلى إنشاء أسطول قوى يستعين به فى صد أعدائه الذين يغيرون على بلاده من جهة

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٥١٢ و ٥٢٥ — ٥٢٧

(٢) بلدة من أعمال حلب . ياقوت : معجم البلدان

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٥٠٩

(٤) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢١٦ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٠ — ٥١

البحر ؛ فعمل على إعداد قوة بحرية . وقد لاقى فى ذلك متاعب كثيرة يرجع معظمها إلى كراهية أفراد رعيته للحروب البحرية . وكانوا قبل ذلك يرغمون على الإشتغال فى الأسطول إذا دعت الضرورة إلى تجهيزه . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل أصبحت خدمة الأسطول فى عهد الدولة الأيوبية وفى أوائل عهد المماليك عاراً يسب به الرجل ، فاذا قيل لرجل ياأسطولى[1] غضب غضباً شديداً . وقد ظل الحال على ذلك حتى تولى بيبرس عرش مصر فاهتم بإعادة شأن الأسطول إلى ما كان عليه فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ومنع الناس من أن يتصرفوا فى أخشاب السفن ، كما أمر بإعداد الشوانى فى ثغرى الإسكندرية ودمياط ، وصار ينزل بنفسه إلى دار الصناعة بمصر ويشرف على تجهيزها . وقد تسنى له بذلك أن يعد أسطولا مكوناً من أربعين قطعة حربية سيره إلى جزيرة قبرس سنة ٦٦٩ هـ : غير أنه لم يلبث أن تحطم بالقرب منها[2] . ولما علم بذلك بيبرس شرع فى إنشاء أسطول آخر وظل يتردد على دار الصناعة بمصر حتى تم إعداده[3] .

وهكذا نجح بيبرس فى العمل على إعادة شأن الأسطول إلى ما كان عليه فى عهد الدولة الأيوبية . وجاء سلاطين المماليك من بعده واقتدوا به فى عنايته ببناء المراكب الحربية ؛ فاهتم الأشرف خليل بن قلاوون على أثر اعتلائه سلطنة مصر (٦٨٩ — ٦٩٣ هـ) [١٢٩٠ — ١٢٩٣ م] بإنشاء أسطول قوى . ولما كملت عدته الستين مركباً أمر بتجهيزها بالآلات الحربية والرجال ، وسار إلى « دار الصناعة » بجزيرة الروضة لاستعراض الأسطول ، وأقام لذلك

---

(١) لعل هذه الكراهية وهذا التعبير بكلمة أسطولى إنما أتى إلى المصريين والمماليك من جهة أن الجيوش الصليبية التى حلت على مصر والبلاد الاسلامية كانت تأتى فى أساطيل غالباً فاذا قالوا للرجل يا أسطولى فكأنهم قالوا له أنت مثل هذا الرجل الذى أتى فى الأساطيل .

(٢) المقريزى: خطط ج ٢ ص ١٩٤

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٩٥

إحتفالا كبيراً أقبل إليه الناس من كل حدب وصوب ، وازدحمت الطرق والميادين بالأهالى الذين خرجوا من بيوتهم لمشاهدة هذا الاحتفال . ولما أقبل السلطان خرجت الشوانى[١] والحراريق[٢] والطرائد[٣] واحدة بعد أخرى وعلى كل من الشوانى برج وقلعة ؛ وتبارى الجند « ومامنهم إلا من أظهر عملا معجباً وصناعة غريبة يفوق بها على صاحبه » ، ثم رجع السلطان فى عسكره إلى القلعة ، وأقام الناس بقية يومهم وليلتهم فى لهو ومرح[٤] .

ومن هنا تتبين مقدار ما وصلت إليه مصر فى ذلك العصر من التقدم فى ميدان الصناعة الحربية والبحرية، ومبلغ اهتمام سلاطين المماليك بأمر الأساطيل الحربية ، حتى ظهرت مصر بالمظهر اللائق بها بين الدول البحرية وخشى بأسها الأمم المجاورة لها ، ولاسيما بقايا الصليبيين ببلاد الشام الذين بعثوا رسلهم بالهدايا يطلبون صلحها .

٤ — الحالة الإقتصادية

عمل بيبرس على تنمية موارد الثروة فى مصر ، فعنى بترقية الزراعة والصناعة والتجارة فعم الرخاء وامتلأت خزائنه بالمال . وقد تيسر له بذلك أن يعد جيشاً قوياً يصد به غارات الصليبيين والمغول التى تطلبت منه أموالا كثيرة ، كما استطاع بفضل هذه الثروة أن يقوم بكثير من الإصلاحات فى أنحاء

---

(١) الشوانى : جمع شونى أو شينى . وهى أهم القطع التى كان يتألف منها الأسطول وأعظمها شأناً وهى مراكب حربية كبيرة كانوا يقيمون فيها أبراجاً وقلاعاً للدفاع والهجوم. وكانت هذه الأبراج مكونة من عدة طبقات تقف فى الطبقة العليا منها العساكر المسلحة بالقوس والسهام ، وفى الطبقة السفلى الملاحون بالمجاذيف .

(٢) الحراريق : جمع حراقة ، وهى مركب حربية كبيرة كانوا يحملون فيها البارود والنفط ولهذا كانت تسمى حراقة نفط أو حراقة بارود .

(٣) الطرائد هى سفن خاصة بحمل الخيول، وكانت تسع نحو أربعين فرساً، وربما وصلت إلى ثمانين فرساً

(٤) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥

الديار المصرية ، وخاصة بقلعة الجبل والقاهرة التى ظهرت فى عهده بمظهر القوة وفاقت غيرها من مدن العالم الإسلامى فى العظمة والعمران ؛ فكانت دورها محكمة البناء وأسواقها ملأى بالطرف النفيسة والأهالى يرتعون فى بحبوحة من العيش .

(ا) الزراعة — وكان للزراعة المحل الأول من رعاية بيبرس ومن خلفه من سلاطين المماليك ، فأقاموا مقاييس النيل وأنشأوا الجسور فى كافة أرجاء البلاد . وكانت هذه الجسور على نوعين : الجسور السلطانية وهى الجسور التى يعود نفعها على البلاد عامة : ويتولى صيانتها أمراء الولايات فيصرفون عليها مما يجبونه من مال الخراج ، وما بقى منه يرسلونه إلى خزانة بيت المال . أما النوع الثانى فهو الجسور البلدية : وهى الجسور التى تعود منفعتها على ناحية من النواحى ، ويتولى صيانتها المقطعون والفلاحون وينفق عليها من مال الناحية التابع لها الجسر[1] .

وقد وجه بيبرس عنايته إلى كرى الترع وتطهير الخلجان ؛ كما اهتم بإنشاء القناطر ، فبنى قنطرة على بحر أبى المنجا[2] بناحية بيسوس[3] بمديرية القليوبية كما بنى قنطرة على ترعة شبرامنت بالجيزة[4] ، فنمت بذلك ثروة البلاد وازدادت محصولاتها .

وكان يزرع بأرض مصر القمح ، وتكثر زراعته ببلاد الصعيد ، وتتراوح غلة الفدان الواحد من أردبين إلى عشرين ، كما كان يزرع بها أيضاً الشعير والفول

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٨ — ٤٤٩ .

(٢) يرجع تاريخ إنشاء هذه الترعة إلى أيام الأفضل بن بدر الجمالى سنة ٥٠٦ هـ . وقد أشرف على حفرها أبو المنجا اليهودى فعرفت باسمه . المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٨٧ — ٤٨٨

(٣) قرية صغيرة تقع على الشاطىء الشرقى لفرع دمياط واسمها الحالى باسوس . على مبارك باشا : الخطط التوفيقية ج ١٠ ص ٢٥

(٤) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٥ — ٤٤٦ و ٦٣٨ — ٦٣٩ .

والحمص وكذلك الكتان — وكان من أهم مزروعات مصر فى عصر المماليك — ويزرع القرط (وهو غذاء للدواب) إذا ما أخذ النيل فى النقصان؛ وكان يتراوح محصول الفدان بين أردبين وأربع ويبات . كذلك اشتهرت مصر فى ذلك العصر بزراعة قصب السكر والقطن ، كما كثر بها زراعة الخضروات كالباذنجان والمقاتى (الخيار والقثاء) والفجل واللفت والخس والكرنب والفواكه : كالعنب والتين والرمان والخوخ والمشمش والقراصية والبرقوق والتفاح والكمثرى والنبق والتوت ، والموز ، والزهور : كالورد والبنفسج والنرجس والياسمين والنيلوفر والريحان الفارسى على اختلاف أنواعه[١] .

وكان بالقاهرة وضواحيها كثير من البساتين نخص بالذكر منها بساتين اللوق التى عنى بيبرس بغرسها سنة ٦٦٢ هـ ، وبستان ابن ثعلب بالقرب من ميدان الصالح أيوب ، وبستان البورجى بالقرب من المقس . وكان يزرع بهذه البساتين جميع أنواع الفاكهة والأزهار[٢] .

(ب) الصناعة — كذلك كان للصناعة النصيب الأوفر من عناية بيبرس وخاصة ما كان متصلا منها بالحرب وأدواتها : فإن الدولة المصرية فى ذلك الحين كانت فى حاجة إلى جيش قوى يحمى حدود إمبراطوريتها الواسعة . وكان لابد من تموين هذا الجيش بالملابس والآلات الحربية .

وقد فطن بيبرس لذلك فوجه اهتمامه إلى ترقية مركز صناعة المنسوجات ؛ نخص بالذكر منها مدينتى تنيس ودمياط التى برز سكانهما فى عمل الثياب الملونة والفرش النادرة المثال ، كما اشتهرتا بحياكة الثياب المصنوعة من الكتان[٣] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣١١ — ٣١٣ و ٤٥٣ — ٤٥٤
(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١١٧ — ١١٨
(٣) القلقشندى : ج ٣ ص ٣٨٧ — ٣٨٨

وكان يصنع بتنيس قصب ملون تتخذ منه العمائم . أما دمياط فقد برز أهلها فى صناعة القصب الأبيض ، وهو عبارة عن قماش من تيل رقيق . وكان يصنع بها أيضاً نوع من القماش يسمى البوقلمون ذو ألوان براقة تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس ، ويتغير لونه باختلاف ساعات النهار [١] . كذلك اشتهرت القيس والبهنسا بصنع المنسوجات الصوفية [٢] . ومن هذه المراكز الصناعية كان السلطان يمد أفراد جيشه بالملابس ويخلع على أمراء دولته وأفراد حاشيته بما يناسب رتبهم .

أما الآلات الحربية وجميع لوازم التعبئة فكان لها أسواق بالقاهرة . وكثيراً ما كانت تزدحم هذه الأسواق بالأمراء والجنود . ويرتفع سعر الحديد وأجر الحدادين وصناع آلات السلاح فى الوقت الذى يشن فيه بيبرس الغارة على أعدائه ببلاد الشام ، وذلك لكثرة إقبال الناس على شراء آلات الحرب [٣] .

وقد حافظت مصر على بعض الصناعات التى اشتهرت بها من عهد بعيد . ومن هذه الصناعات صناعة الفرش والبسط التى مهر فى صناعتها أهل دمياط وكذلك صناعة السكر من القصب الذى كان يزرع ببعض جهات الوجه القبلى مثل ملوى وسمهود وقفط . وكانت هذه الصناعة فى عصر بيبرس على ما يظهر لنا ناشئة ؛ وقد بلغت أوجها فى عهد الناصر محمد بن قلاوون . يحدثنا المقريزى [٤] أنه كان بسمهود سبعة عشر حجراً لعصير القصب ، كما كان بملوى عدة أحجار . وكان يسكن بهذه المدينة فى عهد الناصر أسرة من أصحاب الأراضى تدعى أسرة أولاد فضل بلغت مساحة الأرض التى زرعوها قصب سكر ألفاً

---

(١) الهوارى : رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية ص ٩٠ .

(٢) المقريزى : خطط ج ١ ص : ٢٠ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ١٢ و ٦٢٦ .

(٤) المقريزى : خطط ج ١ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .

وخمسمائة فدان فى العام . وقد أودع أصحاب هذه الأراضى فى مخازنهم إثنين وثلاثين ألف قنطار من محصول سنة ٧٣٨ هـ .

وكان الزجاج أيضاً يصنع بمصر فى عصر بيبرس ومن خلفه من سلاطين المماليك . ولا أدل على ذلك من هذه المشكاوات[١] الزجاجية المحفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة ، ومن بينها مشكاة من زجاج غير ملون على عنقها زخارف . وعلى البدن كتابة حمراء نصها : « مما عمل برسم التربة المباركة السلطانية الملكية الأشرفية الصلاحية تغمدالله صاحبها بالرحمة والرضوان » . ويؤخذ من هذه الألقاب أنها عملت برسم تربة السلطان خليل بن قلاوون الذى قتل سنة ٦٩٣ هـ . وكذلك بالدار مشكاة أخرى على رقبتها آية قرآنية وعلى بدنها إسم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ومن بين زخارفها كثير من الطيور المتقنة الرسم[٢] .

وهناك صناعة أخرى عنى بها المصريون منذ عهد بعيد وظلت مستمرة فى مصر فى عصر المماليك وهى صناعة المعادن : فقد اتخذوا من الذهب الثريات والنوافذ لبيوت سلاطينهم . وليس أدل على ذلك من قاعة «البيسرية» التى بناها السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون فى قصره سنة ٧٦١ هـ . فقد ذكر المقريزى[٤] أنه كان بها تسع وأربعون ثريا . وكان جملة مادخل فيها من الفضة البيضاء الخالصة المضروبة ٢٢٠,٠٠٠ درهم كلها مطلية بالذهب . وكان ارتفاع بناء هذه القاعة ٨٨ ذراعاً . وعليها برج مطعم بالعاج والأبنوس ؛ وبها شبابيك من الذهب الخالص . وكان بتلك القاعة قبة مصنوعة من الذهب تزن ٣٨,٠٠٠

(١) المشكاوات : جمع مشكاة وهى المصباح . وقد ورد فى القرآن « الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » . (سورة النور)

(٢) الهوارى : رسالة فى وصف محتويات دار الآثار العربية ص ١٠٣ — ١٠٦

(٣) المقريزى : خطط ٢ ص ٢١١ — ٢١٢ .

مثقال . وقد أنفق على صنع هذه القاعة مليون درهم من الفضة وهذا يعادل ٥٠٠٠٠ دينار من الذهب .

وقد مهر الصناع المصريون فوق ذلك فى صناعة الآنية . يتبين ذلك من هذه الهدية التى أرسلها بيبرس إلى بركة خان سلطان مغول القفجاق والتى كانت تشتمل على كثير من الأوانى الصينية[1] .

كذلك اهتم المماليك بصناعة الأدوية . وإن فى مارستان قلاوون الذى يعرف الآن بمستشفى قلاوون لمثلا حياً لارتقاء هذه الصناعة فى هذا العصر. فقد بنى قلاوون سنة ٦٨٣ هـ بناء فخما يحتوى على مارستان وقبة ومدرسة وأعد به غرفاً متسعة فرشها بالأسرة للمرضى من الفقراء والأغنياء على السواء وجعل بها قسما خاصاً بالنساء ، كما خصص الإيوانات الأربعة للمرضى بالحمى وأفرد قاعة للمصابين بالرمد وقاعة للجرحى وقاعة للمصابين بالدوسنتاريا كما أنشأ به معملا كيميائياً أعده بكافة أنواع الآلات والأجهزة الطبية[2] .

ومن الصناعات التى أولاها بيبرس عنايته صناعة السفن . فقد أنشأ دوراً لصناعتها بجزيرة الروضة وبثغرى الأسكندرية ودمياط[3] . وكان يذهب بنفسه إلى دار الصناعة بالجزيرة ويتفقد أمورها ، كما كان يباشر إعداد المراكب الحربية قبل مسيرها لغزو البلاد الأجنبية .

(ج) التجارة — ولم تقتصر مصر على ما كانت تنتجه أرضها الخصبة من المحصولات وما كان يقوم به أهلها من الصناعات ، بل استفادت من موقعها الجغرافى ؛ فتبادلت التجارة مع غيرها من الدول فى عهد بيبرس الذى عنى منذ توليته عرش مصر بنشر التجارة المصرية ؛ وعقد لذلك المعاهدات التجارية مع شارل

---

(١) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ١١٢

(٢) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. p. 41

(٣) المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٩٤ و ١٩٧

صاحب أنجو (Anjou) وألفونس (Alfonso) أمير إشبيلية وجيمس ملك أرجونة (١). غير أن هذا الأخير لم يلبث أن قطع علاقته التجارية مع مصر بأن أصدر أوامره سنة ١٢٧٤م بمنع تصدير المعادن وأدوات بناء السفن إليها. ويرجع السبب فى ذلك إلى القرار الذى أصدره البابا جريجورى العاشر (١٢٧١-١٢٧٦م) لأهالى مونتبلييه Montpellier بمنع التجارة مع المسلمين (٢).

ولما ولى قلاوون سلطنة مصر حافظ على العلائق الودية، التى أحكم أواصرها بيبرس مع سلطان مغول القفجاق وإمبراطور القسطنطينية، كما أبرم معاهدة دفاعية بينه وبين ألفونس صاحب قشتالة وجيمس ملك صقلية. كذلك وفدت عليه الوفود من اليمن تحمل الهدايا من الخصيان والفيلة وأنواع الببغاء (٣). وكان لذلك أثره فى استمرار تبادل التجارة بين مصر وهذه الدول.

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل عقد قلاوون معاهدة تجارية مع جنوة، كما أرسل إليه حاكم جزيرة سيلان سفارة سنة ١٢٨٣ م، ومعها كتاب تعذر على رجال حاشيته قراءته (٤). وقد دعاه هذا الحاكم إلى تبادل التجارة مع جزيرته الغنية وذكر له فى كتابه ما يمتلكه من السفن وما تنتجه جزيرته من المحصولات وما يصنع بها من المنسوجات وما يستخرج منها من اللؤلؤ والأحجار الثمينة كما بين له أن المصريين سيجدون فى جزيرة سيلان حاجتهم مما كان يستورد من بلاد الهند: وأخيراً طلب من السلطان أن يعين مندوباً له بعدن (٥). ولعل

---

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 266

(٢) W. Heyd, Histoire du Commerce du Levant au moyen age pp. 422 423.

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt pp. 37-38.

(٤) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 281.

(٥) W. Heyd, Histoire du Commerce du Levant au moyen age p. 426

السبب فى ذلك يرجع إلى رغبة هذا الحاكم فى تسهيل المبادلات التجارية بين البلدين .

وقد لقيت هذه الرغبة قبولا لدى قلاوون، لأنه كان يبغى من وراء ذلك تشجيع التجارة مع الشرق وكان كبيبرس رجلا إداريا بعيد النظر ، فبذل جهداً كبيراً لجذب التجار إلى مصر ، كما أنشأ جوازات للتجار تكفل لهم الطمأنينة على أنفسهم وأموالهم فى أسفارهم بين مصر والشام والهند وغيرها من البلدان[١] .

وهكذا زادت تجارة مصر الخارجية فى ذلك العصر بفضل المحالفات والمعاهدات التجارية التى عقدها كل من بيبرس وقلاوون مع الدول الأوربية والشرقية ، وأيضاً بسبب اتصال أوربا بالشرق على أثر قيام الحروب الصليبية . فقد كان الأيوبيون ومن بعدهم المماليك من أصحاب النفوذ المطلق فى سورية ، فوقعت فى قبضتهم جميع الموانى وطرق القوافل بين أوربا وبلاد الهند وغيرها من بلاد الشرق الأقصى .

وكانت التجارة ترد إلى مصر من أوربا عن طريق الأسكندرية ودمياط ومن الهند والشرق الأقصى عن طريق الخليج الفارسى فخليج عدن فالبحر الأحمر حتى عيذاب ، ومنها تحمل على ظهور الإبل إلى قوص ، ثم تنتقل فى النيل إلى فندق الكارم بالفسطاط[٢] .

وكان من أثر هذه السياسة التى اتبعها بيبرس لتسهيل سبل التجارة المصرية أن نشطت أيضاً حركة التجارة الداخلية بمصر ، فأصبحت أسواق القاهرة تموج بكبار التجار كما كانت الحوانيت تضيق بالباعة فى بعض الأحيان .

ومن أهم الأسواق التجارية التى كانت بالقاهرة فى ذلك العصر سوق الفرائين ويباع به الفراء على اختلاف أنواعه ، وسوق الجملون الصغير وبه

(١) Sranley Lane-Poole, Op. Cit. p. 281.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٨

كثير من حوانيت البزازين الذين يبيعون الأقمشة القطنية والكتانية، وسويقة أمير الجيوش[١] ؛ وكانت من أهم أسواق القاهرة وتشتمل على عدة حوانيت للرفائين والرسامين ، وسوق الشرابشيين [٢] وكان يباع به الخلع التي كان يمنحها السلطان للأمراء والوزراء والقضاة وغيرهم من كبار رجال الدولة ، وسوق الحلاويين وكان من أبهج الأسواق وتباع به الحلوى المصنوعة من السكر ؛ وكانوا فى ذلك العصر يتفننون فى صنعها على عدة أشكال (وهى تشبه ما يصنع الآن فى معامل الحلوى فى المواسم والأعياد والموالد) . وإلى جانب هذه الأسواق كان بالقاهرة أسواق أخرى تليها فى الأهمية يباع بها الطرف والأمتعة والمأكولات [٣] .

(د) موارد الدولة المالية — ولقد سار بيبرس على سياسة تحقيق التوازن بين موارد دولته ومصارفها ، فعين القاضي كمال الدين طاهر وكيلا لبيت المال [٤] وكلفه بالعمل على صيانته والتصرف فيه لصالح الدولة المصرية .

وكانت المصادر الرئيسية لموارد الدولة فى عهد الملك الظاهر تنحصر فيما يأتى:

١ — الخراج : وكان يجبى على حسب غلة الأراضى . فكان أكثر خراج الوجه القبلى عيناً ويتراوح ما يؤخذ من كل فدان يزرع قمحاً أو شعيراً أو حمصاً أو فولا ما بين أردبين إلى ثلاثة ؛ وفى بعض الأحيان يؤخذ مع كل أردب درهم أو درهمان . أما الوجه البحرى فأغلب خراج أرضه نقداً . وكانت الضريبة تزيد وتنقص حسب إنتاج الأرض .

٢ — الزكاة : وكانت تؤخذ على الأغنام التى كثيراً ما كان يملكها

---

(١) كان سوق الفرائين يقع بالقرب من الجامع الأزهر . أما سوق الجلون الصغير فكان بالقرب من باب النصر ، وتقع سويقة أمير الجيوش بين حارة برجوان وحارة بهاء الدين بنجنا

(٢) سمى بذلك نسبة إلى الشرابيش التى كانت تباع به وهى أغطية للرأس مثلثة الشكل تلبس من غير عمامة .

(٣) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٩٨ — ١٠١ و ١٠٣

(٤) « : « ج ٢ ص ٢٢٨

قبائل غربية وتركمانية ، كما تؤخذ من أصحاب الأموال والتجار عن كل مائة درهم خمسة دراهم .

٣ — الجزية : وكان يدفعها أهل الذمة الذين يقيمون فى القاهرة وتتراوح بين عشرة دراهم وخمسة وعشرين درهماً عن كل شخص . وأما من كان يقطن منهم فى خارجها فيأخذ المقطع الجزية المفروضة عليهم .

٤ — ما يفرض على التجار الأجانب القادمين إلى مصر وكان يؤخذ منهم العشر على بضائعهم .

٥ — ما يحصل من الرسوم الجمركية على التجارة الخارجية التى تمر فى ثغور عيذاب والإسكندرية ودمياط . وبجانب ذلك كان هناك ضرائب أخرى تفرض على التجارة التى ترسو بها السفن على سواحل مصر فى طريقها إلى بلاد الشام .

٦ — المعادن التى تستخرج من المناجم المصرية : وأهمها معدن الزمرد ويوجد بكثرة بالقرب من قوص ، وكذلك معدن الشب بالواحات ، والنطرون . وكان يتولى استخراج هذه المعادن مباشرون وأمناء من قبل السلطان ، وعليهم جمع ما يستخرج منها وحمله إلى الخزائن السلطانية .

٧ — التركات التى لا وارث لها : وكان يتولى الإشراف عليها فى حاضرة الديار المصرية ناظر من قبل السلطان ومهمته جمع إيرادها وإرساله إلى بيت المال . وأما ما هو خارج عن حاضرة الديار المصرية فلها مباشرون يقومون بإرسال ما يتحصل منها إلى ديوان السلطان .

٥ — منشئات بيبرس

إتخذ بيبرس قلعة الجبل (١) مقراً لحكمه وسار على سياسة من سبقه من

(١) تقع بين ظاهر القاهرة وجبل المقطم والفسطاط . وقد تم تشييدها الملك الناصر =

سلاطين مصر فى تجميل مدينة القاهرة وضواحيها ، فأسس بها مدرسة زودها بالكتب التى تبحث فى سائر العلوم . وقد شرع فى بنائها سنة ٦٦٠ هـ بخط بين القصرين بالقاهرة على أنقاض قاعة الخيم [1] . ووقف عليها أوقافا وأمر بألا يستخدم فى عمارتها عامل بغير أجرة وألا ينقص مرتب من يقوم بتشييدها .

ولما فرغ من بنائها سنة ٦٦٢ هـ دعا العلماء والفقهاء والقراء للاجتماع بها فجلس أتباع المذهب الشافعى بالإيوان القبلى والحنفية بالإيوان البحرى وأهل الحديث بالإيوان الشرقى والقراء بالإيوان الغربى . وعين لكل فريق من هؤلاء مدرساً . وعندما اكتمل جمعهم تناظروا فى شتى المسائل ثم مدت لهم الأسمطة . وقام بعض الشعراء فأنشدوا شعراً أشادوا فيه بذكر هذه المدرسة ومؤسسها الملك الظاهر . ولما أرفض مجلسهم منحهم السلطان الخلع .

ولم يكتف بيبرس بإنشاء هذه المدرسة ، بل بنى بجوارها مكتباً لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى ، وقرر لمن فيه الخبز فى كل يوم والكسوة فى فصلى الشتاء والصيف [2] ; ثم شرع فى سنة ٦٦٥هـ فى بناء الجامع الظاهرى فأرسل الأتابك فارس الدين أقطاى والصاحب فخر الدين بن حنا ومعهما بعض المهندسين للبحث عن مكان يليق لأن يقام عليه مسجد بجهة الحسينية ; فوقع اختيارهم على مناخ [3] الجمال السلطانية ، فلم يلق هذا الاختيار قبولا لدى

صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى بهاء الدين قراقوش لتكون مركز الحكومة وقلعة الجند . وتمت عمارتها فى عهد الملك الكامل بن العادل أبى بكر بن أيوب سنة ٦٠٤ هـ ، فانتقل من قصر الفاطميين إليها . وظلت منذ ذلك الحين مقراً لسلاطين الأيوبيين والمماليك . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٧٢ .

(١) وهى إحدى قاعات القصر الفاطمى الكبير الذى بناه جوهر للمعز لدين الله الفاطمى .

(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٣٧٨ — ٣٧٩ ; أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثانى ص ١٩٠ ا .

(٣) هو المكان المخصص لأنواع الجمال السلطانية كالاصطبلات لأصناف الخيل .

الملك الظاهر وقال : «لا والله لاجعلت الجامع مكان الجمال ، وأولى ما جعلته ميدانى الذى ألعب فيه بالكرة وهو نزهتى» . ثم ركب إلى ميدان قراقوش وقر رأيه على أن يبنى الجامع على جزء منه وأن يوقف بقيته عليه ، ثم شرع فى استحضار الرخام والأخشاب وأدوات البناء من سائر الولايات .

ولما فرغ من إعداد معدات البناء توجه إلى المدرسة الظاهرية وجلس بين الفقهاء والقراء وقال : «هذا مكان جعلته لله عز وجل وخرجت عنه وقفاً لله . فإذا مت لاتدفنونى (كذا فى الأصل) هنا ، ولا تغيروا معالم هذا المكان فقد خرجت عنه لله تعالى» .

ولم تقف عناية بيبرس ببناء هذا الجامع عند هذا الحد ؛ بل إنه عندما استولى على يافا وهدم قلعتها ، شحن مركباً من رخامها وأخشابها إلى القاهرة وأمر بأن يبنى من هذا الخشب مقصورة الجامع الظاهرى . ولما انتهت عمارته سار إليه سنة ٦٦٧ هـ ، وعين له خطيباً حنفى المذهب ، وخلع الخلع على من تولى الإشراف على بنائه . وكان من بينهم الصاحب بهاء الدين بن حنا والأمير علم الدين سنجر والى القاهرة (١) .

كذلك اهتم بيبرس بإعادة الجامع الأزهر إلى ما كان عليه فى عهد الفاطميين . وكانت صلاة الجمعة قد أبطلت منه منذ تولى قضاء مصر صدر الدين عبد الملك بن درباس فى عهد السلطان صلاح الدين (٢) . وقد ظل الأزهر معطلا من الخطبة إلى أن سكن بجواره الأمير عز الدين أيدمر الحلى فراعه ما آل إليه هذا الجامع وتحدث مع الملك الظاهر فى مسألة إصلاحه

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٩٩ — ٣٠٠

(٢) ذكر المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٧٥ — ٢٧٦ ، أن الخطبة كانت تقام فى جامع الأزهر والحاكم قبل أن يقلد صلاح الدين قضاء مصر لعبد الملك بن درباس وأن هذا القاضى لما تولى القضاء عمل بمقتضى مذهب الامام الشافعى وهو منع إقامة خطبتين للجمعة فى بلد واحد ، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر وأقرها بالجامع الحاكمى لاتساعه .

فأمده ببعض الأموال للإنفاق عليه . وتبرع الحلى أيضاً بأموال كثيرة لهذا الغرض ، واستطاع بذلك أن يعمر الواهى من أركانه وسقوفه وجدرانه واستجد به مقصورة ومنبراً .

وعندما فرغ من ترميمه تناقش الناس فى هل تصح إقامة صلاة الجمعة به أم لا ؛ فأجاز ذلك جماعة من الفقهاء ، وعارض قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز فى إقامة الصلاة به . فشكا الحلى ذلك إلى السلطان ، فتحدث الأخير مع قاضى القضاة فى هذه المسألة فصمم على المنع . فما كان من الحلى إلا أن عمل بفتوى من أجاز إقامة الصلاة به ، وطلب من السلطان أن يحضر فامتنع عن الحضور ما لم يحضر قاضى القضاة (١) .

وعلى الرغم من ذلك أقيمت به صلاة الجمعة فى ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٥ﻫ وأدخلت عليه تعديلات أخرى ، فأنشأ به الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار مقصورة كبيرة عين بها مدرساً وجماعة من الفقهاء الشافعية ومحدثاً يتلو الحديث النبوى وسبعة قراء لقراءة القرآن الكريم ووقف عليه أوقافاً (٢) .

ولم يكن هذا كل ما قام به بيبرس من ضروب الإصلاح ؛ فقد بنى برجاً بقلعة الجبل ، وشيد قناطر السباع (٣) على الخليج المصرى ، وأصلح ما تهدم من كل من منارتى رشيد والأسكندرية ، وجدد سور الأخيرة ، وردم فم بحر دمياط حتى لا يتمكن الفرنجة من العبور إذا ما أرادوا الإغارة عليها من طريق البحر ، واختط قرية بمديرية الشرقية قرب العباسة سماها الظاهرية .

ولم تكن عناية بيبرس بالفنون مقصورة على القاهرة وحدها ، بل تعدتها

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٥٦ — ٥٥٧ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ورقة ١٣٤ .

(٣) عرفت بذلك لأن بيبرس نصب عليها سباعاً من الحجارة . المقريزى : خطط ج ٢ ص ١٤٦

إلى المدينة المنورة وأمهات مدن الشام . فقام بعدة إصلاحات بالحرم النبوى ومارستان المدينة وقبة الصخرة ببيت المقدس ، وجدد مسجد سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ، وشيد القصر الأبلق بدمشق على قواعد ثابتة ودعم أركانه فظل عامراً حتى هدمه تيمور لنك [١] سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠١ م) .

أما عن فن العمارة فى عصر بيبرس فإنه لم يتخذ طابعاً خاصاً كما لم يستقر على قواعد ثابتة . فقد أسس الملك الظاهر مدرسته على نمط المدارس التى بنيت فى عهد الدولة الأيوبية ؛ وكانت عبارة عن بناء مبنى على سمت القبلة وفى وسطه صحن كبير مربع ، وفى كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان مقبب وبها محراب . ومن ثم كانت المدرسة لا تخرج عن كونها مسجداً .

ولما شرع بيبرس فى إنشاء الجامع الظاهرى استعمل فى بنائه لأول مرة مداميك [٢] الحجر الأبيض والأحمر على التوالى ، كما زينه بزخارف متخذة من الجص . وقد ظلت هذه الزخارف ملحوظة فى طرز واجهات أبنية قلاوون الذى ابتدأ يدخـــل فى أيامه على فن المعمار شىء من المحدثات الأجنبية [٣] ؛ غير أن ابنه الناصر عندما تولى سلطنة مصر شرع فى تطوير صناعة الأبنية العربية بما دخل عليها . وقد سار على منواله أهل بيته وغيرهم من رجالات دولته . وكان لذلك أثره فى ارتقاء فن العمارة فى مصر [٤] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٥ — ٤٤٦ و ٥٦١ و ٥٦٣ — ٥٦٤ و ٦١٦ ؛ العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الرابع ورقة ٦٢٠ — ٦٢١

(٢) أى طبقات من الحجر الأبيض والأحمر المتلاصقة بالملاط (المونة) .

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 14.

(٤) مكس هرتس بك : العمدة فى تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية المصرية ص ٣٦ — ٣٧ (تعريب على بك بهجت) .

٦ ــ مظاهر الحياة الاجتماعية

كان يقطن بمصر فى عهد بيبرس عدة عناصر من السكان بجانب أهل البلاد الأصليين، نخص بالذكر منهم المماليك والتتار والأكراد والأتراك.

ولم يكن لأى عنصر من هذه العناصر أى نفوذ سوى المماليك الذين كانت تتكون منهم الطبقة الحاكمة ومعظم الجيش، كما كان يستند إليهم أكبر مناصب الدولة. وقد احتفظوا بجنسيتهم وترفعوا عن الاختلاط بالمصريين والمصاهرة معهم [1]، وحرصوا كل الحرص على بقائهم طائفة عسكرية حاكمة.

وكان هؤلاء المماليك مولعين بالألعاب الرياضية وحب القتال واستعراض الجيوش، كما عنوا بالصيد والسباحة وسباق الخيل والرماية. وقد سبقهم إلى ذلك بيبرس الذى مهر فى السباحة حتى قيل إنه عبر النيل وعليه درعه يتبعه كثير من الأمراء، كما مهر أيضاً فى رمى السهام. وبلغ من عنايته بالرماية أنه أقام لها ميداناً[2] خارج باب النصر كان يمكث به من وقت الظهيرة إلى غروب الشمس يشجع فيه الأمراء على الرمى والنضال، حتى أصبح فن الرماية الشغل الشاغل له ولرجال حاشيته [3].

وبينما كان المماليك يعيشون عيشة الترف، كان المصريون على العكس من ذلك لا عمل لهم إلا زراعة الأرض ودفع الضرائب. وكانوا يقومون

---

(١) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. p. 216

(٢) كان يعرف هذا الميدان باسم ميدان القبق . ويقال له أيضا الميدان الأسود وميدان العيد والميدان الأخضر وميدان السباق وكانت تنزل به العساكر لرمى القبق . المقريزى خطط ج ٢ ص ١١١ .

وقد زاد على ذلك المقريزى فوصف لعب القبق بقوله « إنه عبارة عن خشبة عالية جداً تنصب فى براح من الأرض ويعمل بأعلاها دائرة من خشب وتقف الرماة بقسيها وترمى بالسهام جوف الدائرة لكى تمر من داخلها إلى غرض هناك تمريناً لهم على إحكام الرمى »

(٣) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 290-252.

فوق ذلك بصنع ملابسهم الفاخرة وبناء عمائرهم غير أنهم على الرغم من ذلك لم يحرموا من بعض المناصب الحكومية . فكان يسند إليهم الوظائف الدينية والقضاء [١].

أما أهل الذمة فلم يعاملهم بيبرس معاملة تنطوى على العطف والرعاية لكثرة ما كانوا يقومون به من المناوشات والفتن فقد حدث أن كثر الحريق بالقاهرة أثناء اشتغاله بغزو أرسوف سنة ٦٦٣ هـ ، وأشيع أن النصارى هم الذين أشعلوا هذه النيران . فلما عاد الملك الظاهر إلى مصر أنكر عليهم هذه الأمور التى تفسخ عهدهم ، ثم أمر بإحراقهم ، فشفع فيهم الأمير فارس الدين أقطاى أتابك العساكر على أن يلتزموا بدفع قيمة ما أحرق ، وأن يقدموا لبيت المال خمسين ألف دينار فى كل عام : فأطلق سراحهم السلطان وتولى بطريكهم دفع الأموال المطلوبة منهم ، وتعهدوا بألا يعودوا إلى فعل شىء من المنكرات وبألا يخرجوا عما هو مقرر لأهل الذمة [٢].

كذلك كان بالقاهرة جالية من التتار قدموا إلى مصر فى أوائل عهد الملك الظاهر ، واتخذوا الإسلام ديناً لهم وأقاموا فى دور بنيت لهم فى أراضى اللوق [٣] . وكانوا موضع عناية السلطان فمنحهم بعض الإقطاعات . وكان من أثر هذه المعاملة الحسنة التى عامل بها بيبرس هؤلاء التتار أن كثر عدد الوافدين منهم ، وتزايدت بذلك العمائر فى اللوق والجهات التى حوله [٤].

أما الأكراد والأتراك فلم يكن لهم شأن يذكر فى ذلك العهد . وكان بعضهم جنوداً فى جيش السلطان ، وفيما عدا ذلك لم يكن لهم أى نصيب فى

---

(١) Stanly Lane-Poole, Op. Cit. p. 253.

(٢) المقريزى السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٢٥ ، مفضل بن أبى الفضائل كتاب النهج السديد ص ١٣٤ - ١٣٥

(٣) ذكر المقريزى خطط ج ٢ ص ١١٧ ، أن اللوق كانت تطلق فى عهده على الجهات التى تعرف اليوم بباب اللوق

(٤) المقريزى نفس المرجع ص ١١٧ — ١١٨

الحياة العامة . وإلى جانب هذه العناصر كان هناك بعض طوائف من الفرنجة يستوطنون الثغور المصرية ويشتغلون بالتجارة وليس لهم أى نفوذ فى البلاد .

هذا ، وقد حرص الملك الظاهر على نشر الفضيلة بين أفراد رعيته فألزم رجال حاشيته وبطانته بأداء الصلوات فى أوقاتها ليكونوا قادة الشعب فى الأمور الدينية كما هم قادته فى الشئون السياسية ، وأتى على ما كان بالبلد من منكرات : فمنع المسكرات وخرب بيوتها ، كما أصدر أوامره بإغلاق محال البغاء وخاصة ما كان منتشراً منها بالأسكندرية . وكان يسير بنفسه ليلا فى شوارع القاهرة ليقف على أحوال رعيته ، ثم يصدر تعليماته بما يجب اتباعه لنشر الأمن والطمأنينة .

وكان بيبرس بجانب ذلك شديد الوطأة على النساء ، ولا عجب فى ذلك فقد كان سنياً مغالياً فى مذهب السنة ، فمنع النساء من أن تتعمم وتتزيا بزى الرجال ، كما اضطهد المغنين والمغنيات وأرباب الملاهى والخلاعة والمجون ، فضاقت بهم سبل العيش فى عهده وقل عددهم واستراحت البلاد من مفاسدهم [١] .

وقد استطاع بيبرس بفضل رعايته للفقراء والمعوزين أن يخفف أعباء الحياة عن أفراد شعبه . فأرفد المساكين بالعطايا والمنح الجزيلة : وظهر ذلك جلياً عندما اشتد الحال بالناس سنة ٦٦٢ هـ وعدمت الأقوات وضج الفقراء من الجوع ، فأحصاهم وكلف كل أمير بالإنفاق على عدد معين منهم وتولى هو بنفسه الإنفاق على خمسمائة فقير ، كما عمل على تخفيف آلام ذوى العاهات فنقلهم إلى مدينة الفيوم وأفرد لهم بلدة تغل عليهم ما يكفيهم [٢]

---

(١) المقريزى : السلوك . جـ ١ القسم الثانى ص ٥٠٠ ، ٥٠٣ ، ٥٤٠ ، ٦١٢ .

(٢) المقريزى : السلوك . جـ ١ . القسم الثانى ص ٥٠٧ ـ ٥٠٨ ، ٥٥٣ .

٧ - الحياة العلمية والأدبية

وجه بيبرس عنايته إلى نشر العلوم الإسلامية ، فشيد لذلك المدارس وزودها بخيرة العلماء والفقهاء ، وأعاد الجامع الأزهر إلى ما كان عليه فى عهد الفاطميين ، فصار الطلاب يهرعون إليه من كل أرجاء العالم الإسلامى فاستعادت بذلك القاهرة مكانتها العلمية والأدبية : ونبغ بها بعض الكتاب والمؤلفين ومن مشاهيرهم : محي الدين بن عبد الظاهر وابن خلكان وجمال الدين بن واصل .

ويتميز ابن عبد الظاهر [1] بأنه نشأ بالقاهرة وتلقى بها علومه ، وبرع فى نظم الشعر وكتابة الرسائل والتاريخ . ومن مؤلفاته كتاب «السيرة الظاهرية» ويشتمل على تاريخ الملك الظاهر بيبرس . وهو من المراجع الهامة التى يعتمد عليها فى استقصاء تاريخ هذا السلطان ، وقد نقل عنه كل من النويرى فى كتابه نهاية الأرب ومفضل بن أبى الفضائل فى كتابه « النهج السديد » .

أما ابن خلكان [2] فقد نشأ بمدينة إربل ثم انتقل إلى القاهرة سنة ٦٣٦هـ

---

(١) ولد محيى الدين بالقاهرة فى ٩ من المحرم سنة ٦٢٠هـ (١٢٢٣ م) ومات بها سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) . ولما تولى بيبرس عرش مصر عينه كاتبا لسره بديوان الانشاء وعهد إليه بأداء بعض المهام ، فتولى قراءة نسب الخليفة العباسى سنة ٦٦١ هـ . وكتب تفويض عهد السلطنة لولى عهده الملك السعيد فى سنة ٦٦٢ هـ ، كما كلفه بالذهاب إلى عكاء سنة ٦٦٦ هـ ليحلف أميرها على طاعة السلطان . وظل فى منصبه طوال عهد بيبرس وولديه والمنصور قلاوون والأشرف خليل Enc. Isl. art. Ibn abd al Zahir

(٢) ولد ابن خلكان سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١م) بمدينة إربل من أعمال الموصل وينتسب إلى أسرة يحى بن خالد البرمكى . وقد بدأ دراسته سنة ٦٢٦ هـ تحت إشراف ابن شداد فى حلب ثم انتقل منها إلى دمشق وأقام بها مدة . ولم يلبث أن قدم إلى القاهرة سنة ٦٣٦ هـ ، فعين بها نائبا لقاضى القضاة يوسف بن حسن السنجارى . ولما تولى بيبرس عرش مصر عينه سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) قاضيا للقضاة بدمشق ، ثم عزل سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧١ م) فاشتغل بالتدريس بالمدرسة الفخرية التى أسسها الأمير فخر الدين استادار الملك الكامل سنة ٦٢٢ هـ وقضى بها سبع سنوات عاد بعدها إلى منصبه الأول بدمشق ، عزل منه سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨٢ م) وتوفى فى السنة التالية ٦٨١هـ Nicholson, a Literary History of the Arabs p. 448

بعد ما تلقى علومه فى حلب ودمشق . ومن مؤلفاته كتاب « وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » ، وهو يحتوى على معلومات قيمة فى التاريخ والأدب ويتميز بضبط الأعلام وأسماء البقاع والبلدان وتحقيق الحوادث وترتيب التراجم على حسب حروف المعجم .

ولم يكتب لنا ابن خلكان شيئاً عن بيبرس على الرغم من أنه عاصره وتوفى بعده بخمس سنوات ، فجاء ابن شاكر الكتبى فى فوات الوفيات فاستدرك ما فاته ابن خلكان وكتب عن الظاهر بيبرس .

كذلك نشأ جمال الدين بن واصل [1] بعيداً عن مصر . فقد ولد بحماه وبها تعلم وتأدب ، ثم قدم إلى القاهرة سنة ٦٥٩ هـ . ومن تآليفه « كتاب نخبة الفكر فى المنطق » و « مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب » . وقد وقف ابن واصل عن تأليف هذا الكتاب الأخير أثناء سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م) . ويرجع السبب فى ذلك إلى ذهابه إلى صقلية حوالى ذلك الوقت وإقامته هناك عدة سنين . أما بقيته التى تنتهى بسنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) فهى من تلخيص الكاتب الذى استملاه لكتاب آخر إسمه التاريخ . ويظهر لنا ذلك من هذه العبارة التى وردت فى كتاب « مفرج الكروب » (ج ٢ ص ٤٢٥ ا) ونصها : « قال الفقير إلى رحمة الله تعالى وعفوه نور الدين على بن عبد الرحيم بن أحمد الكاتب المظفرى انتهى إلى هاهنا إملاء القاضى الإمام العلامة جمال الدين محمد بن سالم بن واصل رحمه الله تعالى ، ولم نستوعب حوادث سنة إحدى وستين وستمائة ، وجرت أمور كثيرة ونحن نذكر بعون الله تعالى مختصراً من تمام التاريخ على حسب الطاقة ونسأل الله تعالى المعونة فى ذلك إنه على كل شىء قدير وإليه المصير » .

ومن ذلك نرى أن دراسة التاريخ فى عصر الملك الظاهر كانت فى المحل

---

(١) كان فى أول عهده مدرساً بحماه ، ثم قدم إلى القاهرة سنة ١٢٦١ م ، فأرسله الملك الظاهر إلى منفرد ملك صقلية ليتفق معه على عقد معاهدة بين البلدين ، فقضى هناك وقتا طويلا ألف فيه كتابه « نخبة الفكر فى المنطق » Enc. Isl. art Ibn Wasil.

الأول من عناية الكتاب ، ولم يعن أحدمنهم بدراسة العلوم النقلية كالجغرافية والفلسفة والكيمياء والفلك . وقد يكون هذا راجعاً إلى أن الدراسة فى ذلك الوقت كانت مقصورة على العلوم الدينية .

وكان من مظاهر الأدب فى هـــذا العصر النثر الفنى والنظم . وقد تجلى الأول فى الرسائل التى كانت تحرر بديوان الإنشاء باسم السلطان وترسل إلى حلفائه من الملوك والأمراء وإلى ولاته وعماله بالأقاليم . وكان يعنى فيه بتزيين الألفاظ وتجميلها بالسجع وغيره من ضروب التحلية . أما النظم فإنه على الرغم مما أصابه كان أرقى من النثر كثيراً ، لأن تقيده بالوزن والقافية لم يجعل فيه متسعا لتراكم المحسنات اللفظية وتزاحمها . ولم يصل إلينا منه إلا النذر اليسير ، وأغلبه مدح للسلطان ووصف لانتصاراته .

ومن أشهر الشعراء الذين ظهروا فى عصر بيبرس : الشيخ عبد العظيم بن الجزار وكان من فحول الشعراء [1] . ومن شعره الرقيق قوله يشكو بعض أبناء زمنه

من منصفى من معشـــر كثروا علىَّ وأكثروا
صادقتهم وأرى الخرو ج من الصداقة يعســـر
كالخط يسهل فى السطو ر ومحـــوه يتعـــذر
وإذا أردت كشطتـــه لـــكن ذاك يؤثر

ومن الشعراء الذين عاصروا بيبرس مجاهد بن أبى الربيع سليمان بن مرهف المصرى المتوفى سنة ٦٧١ هـ وكان فاضلا أديباً . ومن شعره [2] :

أعد يا برق ذكرى أهل نجد فإن لك اليد البيضاء عندى
أشيمك بارقاً فيضل عقلى فواعجباً تُضل وأنت تهدى
بعثت مع النسيم له سلاماً فما عُنوا على له بـــرد

(١) ابن إياس ج ١ ص ١٠٨ — ١٠٩ .
(٢) ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٣١ .

وهناك شاعر آخر عاش فى عصر بيبرس وهو شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجى البوصيرى المتوفى سنة ٦٩٥ هـ . وقد ولد هذا الشاعر بدلاص من قرى مديرية بنى سويف سنة ٦٠٨ هـ . ونشأ ببوصير وانتقل إلى القاهرة وفيها تعلم علوم العربية والأدب ، واشتغل بالكتابة والشعر ، وولى الكتابة فى الدواوين ، وتصرف فى مناصب كثيرة بالقاهرة والأقاليم ، وباشر بلبيس قصبة الشرقية فى ذلك الحين . ولم يرق فى نظره هذا العمل لما كان يراه من خيانة بعض العمال وسلب أموال الدولة ؛ فقال فيهم قصيدته المشهورة التى مطلعها[١] :

نقدت طوائف المستخدمينا ... فلم أر فيهم رجلا أمينا

فقد عاشرتهم ولبثت فيهم ... مع التجريب من عمرى سنينا

ويمتاز شعر البوصيرى بالرصانة والجزالة ويكثر فيه مراعاة البديع . ومن شعره قصيدة البردة وهى من أفضل مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم وأولها :

أمن تذكر جيران بذى سلم ... مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة[٢] ... وأومض البرق فى الظلماء من اضم[٣]

ومن حكمها البديعة :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

فاصرف هواها وحاذر أن توليه ... إن الهوى ما تولى يصم[٤] أو يصم

وله قصيدة أخرى همزية فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم لا تقل عن البردة فى فصاحتها وأولها :

---

(١) ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(٢) بلدة تقع على ساحل الخليج الفارسى من بلاد الجزيرة العربية على مقربة من مصب دجلة والفرات .

(٣) واد يبتدىء من غربى المدينة ويصب فى بحر القلزم (البحر الأحمر) .

(٤) أى ما توله منه من أصميت الصيد إذا قتلته وأنت تراه — (أو يصم) من وصم العود إذا صدعه أو من الوصم بمعنى العيب .

كيف ترقى رقيك الأنبياء ... يا سماء ما طاولتها سماء

لم يدانوك فى علاك وقد حا ... ل سناً منك دونهم وسناء[١]

إنما مثلوا صفاتك للنا ... س كما مثل النجوم الماء

أنت مصباح كل ضوء فما تصـ ... ـدر إلا عن ضوئك الأضواء

وقد نسج على منوال هاتين القصيدتين كثير من الشعراء بعد البوصيرى، ولكنهم لم يشقوا له غباراً بل تأخروا عنه ؛ ولذلك يقول أمير الشعراء أحمد شوقى فى قصيدته التى عارض بها البوصيرى وسماها « نهج البردة » يعتذر عن تأخره عن اللحاق بالبوصيرى :

المادحون وأرباب الهوى تبع ... لصاحب البردة الفيحاء فى القدم

مديحه فيك حب خالص وهوى ... وصادق الحب يملى صادق الكلم

وقد توفى البوصيرى بالاسكندرية سنة ٦٩٥ هـ . وله مسجد كبير بها يعرف الآن بمسجد الأباصيرى نقشت البردة على جدرانه .

وهناك شعراء آخرون نظموا شعراً أشادوا فيه بذكر بيبرس فى الحفل الذى أقامه لافتتاح المدرسة الظاهرية وهم : الأديب أبو الحسين الجزار والسراج الورّاق، والشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب[٢]:

ومما قاله أبو الحسين الجزار :

ألا هكذا يبنى المدارس من بنى ... ومن يتغالى فى الثواب وفى الثنا

لقد ظهرت للظاهر الملك همة ... بها اليوم فى الدارين قد بلغ المنى

تجمع فيها كل حسن مفرق ... فراقت قلوباً للأنام وأعينا

ومذ جاورت قبر الشهيد فنفسه النفيـ ... ـسه منها فى سرور وفى هنا

وما هى إلا جنة الخلد أزلفت ... له فى غد فاختار تعجيلها هنا

(١) السنا : النور . السناء : الرفعة .

(٢) المقريزى خطط ج ٢ ص ٣٧٩

وقال السراج الوراق :

مليك له فى العلم حب وأهله فلله حب ليس فيه ملام
ولا تذكرن ملكا فبيبرس مالك وكل مليك فى يديه غلام
ولما بناها تزعزعت كل بيعة متى لاح صبح فاستقر ظلام
وقد برزت كالروض فى الحسن أنبأت بأن يديه فى النوال غمام
ألم تر محرابا كأن أزاهرا تفتح عنهن الغداة كمام[1]

ومن قول الشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب

قصد الملوك حماك والخلفاء فافخر بأن محلك الجوزاء
أنت الذى أمراؤه بين الورى مثل الملوك وجنده أمراء
ملك تزينت الممالك باسمه وتجملت بمديحه الفصحاء
وترفعت لعلاه خير مدارس حلت بها العلماء والفضلاء
يبقى كما يبقى الزمان وملكه باق له ولحاسديه فناء
كم للفرنج وللتتار ببابه رسل مناها العفو والإعفاء
وطريقه لبلادهم موطوءة وطريقهم لبلاده عذراء
دامت له الدنيا ودام مخلداً ما أقبل الإصباح والإمساء

ولم يكن هذا كل ما قيل من الشعر فى عهد بيبرس ، بل هناك أشعار أخرى نظمها محيي الدين بن عبد الظاهر :

فمن قوله عندما استولى بيبرس على حصن عكار[2] :

يا مليك الأرض بشرا ك قد نلت الإرادة
إن عكار يقينا هى عكا وزيادة

(١) كمام : جمع كم ، وهو غلاف الثمر .
(٢) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الرابع ص ٥٦٦

ومن قوله أيضاً عندما أستولى الملك الظاهر على سيس[1] :

ياويح سيس أصبحت نهبة	كم عرق الجارى بها الجارية
وكم بها قد ضاق من مسلك	يستوقف الماشى بها الماشية

وله غير ذلك قصيدة يهنىء فيها بيبرس بعيد الفطر سنة ٦٧٢ هـ وبختان ابنه نجم الدين خضر [2] وفيها يقول :

يا مالك الدنيا ومن	بعزمه الدين نصر
هنئت بالعيد وما	على الهناء اقتصر
لكنها بشارة	لها الوجود مفتقر
تفرحة قد جمعت	ما بين موسى والخضر

وهناك قصيدة أخرى من نظم محيى الدين بن عبد الظاهر فى رثاء الظاهر بيبرس وتهنئة ابنه الملك السعيد بالملك ؛ وهى فى نظرنا لا تقل روعة عن غرر القصائد فى أزهى عصور الأدب وقد قال فيها :

الله أكبر إنها لمصيبة	منها الرواسى خيفة تتقلقل
لهفى على الملك الذى كانت به الد	نيا تطيب فكل قفر منزل
الظاهر السلطان من كانت له	منن من كل الورى وتطول
لهفى على آرائه تلك التى	مثل السهام إلى المصالح ترسل
لهفى على تلك العزائم كيف قد	غفلت وكانت قبل ذا لا تغفل
ما للرجال تخولتها رعدة	لكنها إذ ليس تعمل نعقل
سهم أصاب ومارمى من قبله	سهم له فى كل قلب مقتل
أنا إن بكيت دماً فعذرى واضح	ولئن صبرت فإننى أتمثل

---

(١) ابن شاكر الكتبى : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٣٦ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١١٥ .

خلف الشهيد لنا السعيد فأدمع منهلة في أوجـــه تتهلل

يتضح لنا بما تقدم ذكره من النظم الرائع أن الحالة الأدبية فى عصر بيبرس لم تكن متأخرة إلى الحد الذى يظن لأول وهلة ، فإن كثيراً من مؤرخى الأدب يرمى هذا العصر بالجمود الشعرى ؛ ولكنا نرى فى بعض هذه القصائد والقطع روحاً شعرية عالية ومعانى مبتكرة .



مصادر الكتاب

(أ) المصادر العربية

١ — ابن أبى الفضائل (مفضل ..) :
« كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد »
(Paris 1911, 1920.)

٢ — ابن إياس (٩٣٠ هـ ، ١٥٢٣ م) : أبو البركات محمد بن أحمد .
« كتاب تاريخ مصر » المعروف « ببدائع الزهور فى وقائع الدهور »
(بولاق سنة ١٣١١ هـ) .

٣ — ابن حجر العسقلانى (٨٥٣ هـ ، ١٤٤٩ م) : شهاب الدين بن على .
« رفع الأصر عن قضاة مصر » (مخطوط بدار الكتب المصرية) .

٤ — ابن خلدون (٨٠٨ هـ ، ١٤٠٥ — ١٤٠٦ م) عبد الرحمن بن محمد .
« العبر وديوان المبتدأ والخبر » (القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ) .

٥ — ابن شاكر (٧٦٤ هـ) فخر الدين محمد .. بن أحمد الكتبى
(١) « عيون التواريخ » (مخطوط بدار الكتب المصرية) .
(٢) « فوات الوفيات » .

٦ — ابن عباس : شافعى بن على بن عباس .
« المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية » (مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس) .

٧ — أبو الفدا (٧٣٢هـ ، ١٣٣١م) . إسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماه .
« المختصر فى أخبار البشر » .

٨ — أبو المحاسن (٨٧٤هـ ، ١٢٥٤م) : جمال الدين يوسف بن تغرى بردى .
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (مخطوط بدار الكتب المصرية)

٩ — ابن واصل (٦٩٧ هـ) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم .
«مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب» (مخطوط بدار الكتب المصرية)

١٠ — بيبرس الدوادار (٧٢٥ هـ) .
« زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » (مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة) .

١١ — السيوطى (٩١١هـ) : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد .
(١) « تاريخ الخلفاء وأمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة » .
(٢) « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » .

١٢ — العينى (٨٥٥ هـ) : بدر الدين محمود .
«عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » (مخطوط بدار الكتب المصرية) .

١٣ — القلقشندى (٨٢١ هـ ، ١٤١٨ م) : أبو العباس أحمد .
« صبح الأعشى فى صناعة الانشا » .

١٤ — المقريزى (٨٤٥ هـ ، ١٤٤١ م) : تقى الدين أحمد بن على .
(١) « السلوك لمعرفة دول الملوك » (نشر الدكتور زيادة) .
(٢) « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » (طبعة بولاق سنة ١٢٧٠ هـ) .

١٥ — النويرى (٧٣٢ هـ ، ١٣٣٢ م) : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .
« نهاية الأرب فى فنون الأدب » (مخطوط بدار الكتب المصرية) .

١٦ — ياقوت (٦٢٦ هـ ، ١٢٢٩م) : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى .
« معجم البلدان » .

١٧ — اليونينى (٧٢٦ هـ) : الشيخ قطب الدين .
« الذيل على مرآة الزمان » (مخطوط بدار الكتب المصرية) .

(ب) المصادر الإفرنجية

1 — Arnold, Prof. (Sir Thomas)
1. «The Preaching of Islam.»
2. «The Caliphate.»

2 — Barker, Ernest.
« The Crusaders.»

3 — Browne, : Edward G.
Vol. II «Literary History of Persia from Firdawsi to sadi»
Vol. III «Persian Literature Under Tartar Dominion.»

4 — Davies, Rev. E. J.
« Invasion of Egypt in A.D. 1249 (A. H .647) by Louis lx of France.

5 — Heyd ; W
« Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age. »

6 — Joinville, (Sire de)
« Memoirs of the Crusades. »
By Villehardouin & Joinville. Translated by Sir Frank Marzials

7 — King.
«The Knights Hospitallers in the Holy Land.»

8 — Lane—Poole. Stanley.
« A History of Egypt in the Middle Ages.»

9 — Le Strange (G.)
Palestine under Moslems.»

10 — Muir (Sir william.).
1· « The Caliphate, its Rise, Decline, and Fall.»

2. «The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt.»

11 — Nicholson, prof Reynold. A.
«Literary History of the Arabs.»

12 — Stevenson, W. B.
«The Crusaders in the East.»

13 — Cambridge Medieval History, Vol. IV.

14 — Encyclopaedia of Islam.

فهرس الأعلام

(تنبيه) : إعتمدنا فى ترتيب الأعلام على أول الإسم دون المبالاة بأداة التعريف ؛ وبألفاظ : الأب والإبن : فمثلا : « أبو العباس » تجده فى حرف العين ، « وأبو الفتوح » فى حرف الفاء ، و « أبو المحاسن » فى حرف الميم . و « ابن شاكر » تراه فى حرف الشين ، و « ابن واصل » فى حرف الواو وهلم جرا .

فهرس البلاد والمدن والمواضع والبحار والأنهار

